روايات مصرية للجيب

قلب البحر

وقصص أخرى

كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

38

Looloo
www.dvd4arab.com

نبيل فاروق

- مع بدء العـــد التنـــازلى ، نحو القـــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكيـــل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـــارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق

متمـــرِّدة

(خواطر)

لى صديقة لطيفة ، رقيقة ، مهذَّبة ، واعية ..

ومتمرِّدة ..

متمرِّدة طوال الوقت ، وكل الوقت ..

وهى لاتقبل أبدًا بالمألوف ، أو المعتاد ، أو العرف ، أو التقاليد ، مالم يهضمه عقلها ، ويستوعبه ذهنها ، ويقتنع به كيانها ..

ولأنها فى عمر لم يسمح لها زمنيًا باكتساب الحكمة المطلوبة ، لمثل هذا النوع من التفكير ، فهى فى صراع مستمر ، لمحاولة إثبات وجهة نظرها ، وصحة أفكارها ، وكونها على صواب ، على الرغم من مخالفتها لجميع من حولها .

ولأن الناس يميلـون دومًا إلى الاستقرار والهدوء ، ولأنهم أعداء ما يجهلون كما تعلمنا منذ حداثتنا ، فهم يستريحون فى المعتاد لبقاء الأوضاع على ما هى عليه ، دون تغيير أو تبديل ، ويزعجهم بشدة أن يأتى من يدفعهم إلى التغيير ..

أى تغيير ..

ومع انزعاجهم ، تبدأ مقاومتهم ..

وتتزايد أكثر وأكثر ، مع كل محاولة جديدة ، حتى يصبح الأمر بالفعل أشبه بصراع ..

صراع عنيف بين المعتاد والجديد ..

ولأن صديقتى قد اتخذت من التمرُّد على المألوف سبيلاً ، كما فعلت أنا نفسى ، منذ مايقرب من ربع قرن ، فهى لاتبالى بالصراع ، أو تأبه له ، وتصر طوال الوقت على خوضه ، فى كل الاتجاهات ..

وعلى كل الجبهات ..

حتى جبهتها شخصيًا ..

ولأنها اعتادت الصراع ، تأبى أن تتوقَّف عنه لحظة واحدة ، فإن لم تجد ماتصارع الآخرين من أجله ، تبدأ فى الصراع مع نفسها ؛ لتغيير عادة سيئة ، أو اكتساب عادة حسنة جديدة ..

من وجهة نظرها بالطبع ..

وصديقتى هذه لها أفكار ثورية ، وآراء جديدة قوية ، لاتريد بها تغيير أمر واحد أو أمرين ، بل ترغب فى تغيير الدنيا كلها ..

وهى تؤمن بكل ماتفعله بقوة ..

وتتحمَّس له بمنتهى الشدة ..

ولأن العناد أمر يقترن دومًا بالتمرُّد ؛ فهى عنيدة للغاية ..

ولكنها لاتعترف بهذا أبدًا ..

بل ولا تعترف حتى بأنها متمرِّدة ..

هذا لأن الأمور ـ فى عمرها الصغير ـ مازالت تحمل تعريفات جامدة ، وانطباعات حادة ، لاتقبل المرونة أو التطوّر ..

فهى تتصوَّر أن التمرُّد هو نوع من الانفلات ، والفساد ، وعدم التقيد بأية قواعد ، وتكره بالطبع أن توصف بأى من هذه الصفات ، التى تبدو قبيحة ومبتذلة للغاية ..

ولكن التمرُّد ليس كذلك أبدًا ..

فعبر التاريخ ، شاهدنا حركات تمرُّد على السلطة الغاشمة ، وعلى الطغيان ، وعلى الاحتلال ، وحتى على بعض التقاليد البالية ، غير المنطقية أو العملية ..

ولكن التاريخ ـ ولسبب ما ـ كان يرفض دومًا أن يطلق على ما يحدث اسم (التمرُّد) ..

فهو إما ثورة ، أو عصيان ، أو انقلاب ، أو انتفاضة ..

والوصف الذى يستخدمه التاريخ ، يعبِّر دومًا عن موقفه من حالة التمرُّد ، والتى تختلف حتمًا ، من عصر إلى عصر ، ومن زمن إلى زمن ، بل ومن أيديولوجية حكم إلى أخرى .

ولكن كل هذا يندرج تحت مصطلح (التمرُّد) ..

التمرُّد إذن ليس صفة سيئة ، إلا إذا ارتبط بالانحراف عن المسار الصحيح للأمور ..

وحتى كلمة المسار الصحيح هذه ، تحتاج إلى اختيار منهج أساسى للحياة أولاً ، فما يبدو التزامًا بمنهج ما ، قد يكون انحرافًا حادًا أو عنيفًا ، فى منهج آخر ..

قواعد منهج التمدين مثلاً ، قد تتعارض بشدة مع أصول المنهج الدينى ، أو المنهج الاجتماعى البسيط ..

وهكذا ..

أقول لصديقتى (المتمردة) إن التمرُّد إذن ليس صفة سيئة ..

إنه طاقة هائلة ، يمكن أن تقودنا إلى أعلى مكانـة فى الوجود ؛ لو أننا استخدمناها بصورة إيجابية ، وإلى أسفل السافلين ؛ لو استخدمناها بصورة سلبية ..

ففى رأيى أنا ، لابد من أن يتمرَّد المرء ، بين حين وآخر ..

يتمرَّد على تعنتات مزمنة ، تتعارض مع قواعد الدين أو المنطق ..

يتمرَّد على نظم غاشمة ..

على محاولات سلب حريته ..

على أخطاء يرتكبها ، أو يسمح بارتكابها ..

هذا وحده يجعله شخصًا قابلاً للتطوّر ، والتقدُّم والرقى ..

ولكن من الخطأ أن يتمرَّد المرء ، دون أن تكون لديه المعرفة الكافية ..

هذا لأنه قد يتمرَّد على أمور ، هى أساس بناء حياته ومستقبله ..

وهنا تكمن الخطورة ..

وهنا أيضًا يكمن المعنى ، الذى أردت توصيله لكل الأصدقاء ..

وكذلك لصديقتى ، اللطيفة ، الرقيقة ، المهذَّبة ، الواعية ، و...

والمتمرِّدة .

★ ★ ★

مقدّمة

هذه الخواطر هى سيرة ذاتية ..

وعمل أدبى ..

جزء من هذا ، وشىء من ذاك ..

إنها ذكريات لفترة من فترات حياتى ، ربما كان لها الفضل ، بعد الله (سبحانه وتعالى) ، فيما أصبحت عليه الآن ..

فقد بدأت تلك الفترة طبيبًا عاديًا ، من مئات الأطباء ، الذين حصلوا على شهادتهم الجامعية ، وأنهوا فترة التدريب الإجبارى (الامتياز) ، ثم انتقلوا لقضاء فترة التكليف الإجبارية ..

وانتهت وأنا أضع قدمىَ على أوّل سلمة فى مشوار طويل ، كان ولا يزال مصدر متعتى الوحيد ..

الأدب .. والقلم ..

والأوراق ..

ولقد تمنيت كثيرًا أن أكتب هذه الذكريات والمذكرات ..

وتردّدت أكثر فى كتابتها ..

ربما لأننى خشيت ألا يتقبّل القارئ فكرة أن يضيع الكاتب (أى كاتب) بعض الأوراق ، فى الحديث عن نفسه ..

أو لأنه ليس من السهل أن يكتب المرء عن نفسه ..

وحياته ..

وذكرياته ..

ولكن شيئًا ما ، لست أدرى كنهه بالضبط ، جعلنى أحسم تردُّدى هذا .

شىء ما ، جعلنى أعجز عن مقاومة رغبتى فى كتابة هذه المذكرات ..

ربمَا لأنها أحداث مرّت عليها ثمانى عشرة سنة أو أكثر ، وخشيت أن تذوب فى بحر الذاكرة ، فتفقدنى وأفقدها ..

أو ربما لأن المرء يحتاج أحيانًا إلى التحدُّث عن ذكرياته ..

ربما .

المهم أن هذه الأوراق بين يديكم الآن ..

اعتبروها مجرَّد عمل أدبى ..

وهذا سيكفينى ..

تمامًا ..

د. نبيل فاروق

★ ★ ★

١١ ـ الفصل الأوَّل .. والأخير ..

أخيرًا ، وصل قرار النقل ..

نقلى من ريف (قنا) ، إلى ريف محافظتى (الغربية) ..

لا يمكننى أن أصف الآن تلك المشاعر المتناقضة العجيبة ، التى ملأت كيانى كله ، مع وصول القرار ، بعد طول انتظار ، ولكن من المؤكَّد أنها كانت تتراوح بين الفرح ؛ لانتهاء فترة الغربة ، والحزن ؛ لمفارقة كل من صادقتهم وارتبطت بهم هناك ..

فى حضن الجبل ..

وفجأة ، وعلى عكس كل ما تصوَّرته ، وجدت نفسى أشعر باشتياق مسبق لكل ما يحيط بى ..

اشتياق للريف ، والبشر ، والجبل ..

وحتى عجل البوهى الضخم ..

وفجأة أيضًا ، وجدت نفسى أنهمك فى لقاء كل الأصدقاء هناك ، وفى زيارة كل مكان عرفته ، فى الصعيد الجوَّانى ..

كنت كالمهاجر ، الذى تنتابه رغبة عارمة ، فى التزوّد بكل ما يحب من تراب وطنه ، قبل أن يفارقه ، ويرحل بعيدًا عنه ..

وبعيد هنا كلمة مضحكة بحق ، فمحافظة (قنا) ليست فى آخر العالم ، وإنما تبعد بضع مئات من الكيلومترات فحسب ..

ولكنه شعور الغربة ..

كل الغربة ..

المهم أننى قاومت باستماتة ذلك الشعور ، بأن (أبو دياب شرق) هى وطنى الثانى ، وفكَّرت فى عمل بعض التحاليل الطبية ؛ لأتأكَّد من أن الفيروس (الأيوديابى) لم يتسلَّل إلى مجرى دمى بالفعل ، وإلا لأصبحت أوَّل بحراوى صعيدى فى التاريخ ، وقرَّرت أن أتم إجراءاتى بأسرع ما يمكن ، حتى أبتعد بسرعة عن تراب (أبو دياب شرق) ، قبل أن أجد نفسى فجأة متمرغًا فيه ، ومتشبثًا به ..

وفى اليوم التالى ، سافرت إلى مدينة (قنا) ، وبدأت فى إنهاء إجراءات النقل .

ولأننا فى (مصر) ، بلد التعقيدات الإدارية ، التى تكاد تثبت أن قدماء المصريين هم أوَّل من كشف البيروقراطية ، كان من الطبيعى أن أجد أمامى عدة عقبات ، فى سبيل إخلاء الطرف ، وكأننى أهم طبيب فى الصعيد كله ، ومحافظة (قنا) كلها تتشبَّث بوجودى ، وتتمنى أن أظل فيها إلى الأبد ..

وفجأة ، ظهرت تحقيقات لم تكتمل ، وأوراقًا لم توقَّع ، وصيدلية لا يوجد متفرّغ لعمل الجرد اللازم لها ، لإنهاء عمليات التسليم والتسلُّم ، و ..... ، و .....

وفى صبر ، رحت أنهى الإجراءات ، وأطارد موظفى الشئون القانونية ؛ لإقناعهم باستكمال التحقيقات ، التى لا أدرى متى بدأت ، أو لماذا نشأت من الأساس ، دون أن أعلم عنها شيئًا ..

ومن كثرة ما واجهته من تحقيقات مرهقة ، راودنى شعور بأننى (خُط الصعيد) ، وهو مجرم عريق ، كانت له شنة ورنة فيما مضى ، وحوّلته الصحف إلى أسطورة إجرامية صعيدية ، وتصوّرت نفسى أحمل مدفعًا آليًا ، و(ألبد) وسط حقول الذرة ، لأطلق النار على موظفى الشئون القانونية ، واحدًا بعد الآخر ، ثم أتحوّل بعدها أنا أيضًا ، إلى أسطورة إجرامية ، بحراوية ، صعيدية ، خنفشارية ، بسبب كومة من التحقيقات ، انتهت كلها إلى لا شىء ، وإلى إثبات أنه لم يكن هناك مبرّر لإجرائها من الأساس !!

ولكن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ ستر ، وانتهت التحقيقات كلها إلى الحفظ ، قبل أن أستبدل بثيابى طاقية وجلبابًا ، وبمسماعى الطبى مدفعًا آليًا سريع الطلقات ، وأغيّر اسمى إلى (الخُط ...) ..

وبقيت مشكلة عهدة الأدوية ، وضرورة أن يتسلّمها شخص ما ، حتى يمكننى إخلاء طرفى ، والواقع أنه مع الجهد الرهيب الذى بذلته ، حتى يتم إخلاء طرفى ، كدت أتصوّر أن الطرف المطلوب إخلاءه هو مجرّد ذيل ، وليس طرفًا آدميًا أساسيًا ..

وبعد أن انتابنى اليأس ، فاجأت الطبيب ، الذى سيحل محلّى ، فى وحدة (أبو دياب شرق) ، بزيارة صباحية ، فى المركز الطبى

فى مدينة (قنا) ، وأيقظته من نومه ، وطلبت منه أن يتسلّم العهدة ، حتى يمكننى الفرار ..

إحم .. أقصد إخلاء الطرف (الذى تبين أنه ليس ذيلاً ، كما خُيّل إلىّ) .

ووافق الطبيب الشاب ، فى سهولة أدهشتنى ، بعد أن اعتدت من كل شخص وكل جهة تحويل السهل إلى صعب ، واليسير إلى عسير .

وافق ، ووقّع محضر التسليم والتسلّم ، دون حتى أن يتأكّد من صحة ما به ، كما لو أن كل ما كان يفكّر فيه لحظتها هو أن يعود إلى النوم ، وأن أغور أنا من وجهه فى تلك الساعة المبكّرة ..

ولأننى ما زلت أحمل بعض الدم فى عروقى ، فقد اكتفيت بتوقيعه ، وتركته يعود إلى النوم ، وطرت أنا إلى مديرية الشئون الصحية ؛ لإنهاء إجراءات إخلاء الطرف ..

وبهذا الإجراء الأخير ، حدثت المعجزة ، وأنهيت المطلوب ، وحصلت على إخلاء الطرف ، الذى يحوى فى نهايته ، ككل الأوراق الحكومية ، تحذيرًا يؤكّد أنه ليس نهائيًا ، وأنه لو تم كشف شىء ، أى شىء ، فى غضون الألف سنة التالية ، فسيعتبر لاغيًا ، ولا قيمة له ..

حتى لحامله ..

ومع إخلاء الطرف ، الذى أعاد لى القدرة على اللعب بذيلى ، حصلت على خطاب من مديرية الشئون الصحية بمحافظة (قنا) ، إلى مديرية الشئون الصحية بمحافظة (الغربية) ، يُؤكّد فيه أننى منقول وظيفيًا ، من الأولى إلى الثانية ..

وفى تلك الليلة سهرت مع كل الأصدقاء القدامى ، وأقمنا احتفالاً صعيديًا أصيلاً ، امتلأت خلاله معدتى بالبط المحمّر ، والأوز المشمّر ، والويكة والملوخية بالطبع ..

وفى الصباح التالى ، حملتنى سيارة الأسطى (عبد اللّه) إلى مدينة (قنا) ، مع ثلاث حقائب ، تحوى كل ما يخصنى ، ومنها حقيبة كتب بالطبع ، وعند رصيف المحطة ، ودعنى (عبد اللّه) ، وركاب سيارته ، وساعدونى فى حمل الحقائب إلى المقهى الصغير هناك ، لأجلس فى انتظار القطار ، و .....

وفجأة ، وجدت أمامى مفاجأة ..

(حجاج) شخصيًا ، جاء ليودعنى ، أو ليطمئن بنفسه على أننى سأعود بالفعل إلى (طنطا) ، وسيتوقف الصراع بينى وبينه نهائيًا ..

والمدهش أن (حجاج) كان يومها مثالاً للشهامة والكرم والجدعنة ، وهو يصر على دعوتى على كوب من الشاى ، وعدد من السندوتشات الطازجة ، ثم جلس يتحدّث معى كصديقين عزيزين ، حتى وصل القطار ، فحمل الحقائب بنفسه إليه ، وعانقنى فى حرارة ، وهو يؤكّد لى أنه لن ينسى فترة عملنا معًا أبدًا .. وفى القطار ، استرخيت فى مقعدى ، ورحت أراجع الموقف كله ، وأنا أتساءل : أين وضع (حجاج) جرعة السم بالضبط ؟! فى الشاى ، أم فى السندوتشات ؟!

ولكن يبدو أنه لم يضعه فى هذا أو ذاك ، فقد ظلت معدتى عادية ، باستثناء الانتفاخ الذى تصنعه سندوتشات الفول بالطبع ، ولم تتأثر حالتى الصحية العامة ، مما جعلنى أقتنع بأن (حجاج) كان مخلصًا فى وداعه لى ..

أو أنه قد استخدم نوعًا من السموم الهندية ، بطيئة المفعول !

والعجيب أننى ، ولأوّل مرة فى حياتى ، غفوت فى مكان متحرك ، واستغرقت فى نوم عميق ، على ذلك المقعد الوثير ، فى قطار الدرجة الأولى ، ولم أستيقظ ، أو أشعر بالطريق ، الذى قطعته وتعذّبت فيه عشرات المرات ، حتى أيقظنى أحدهم فى محطة (القاهرة) ، وهو يقول فى ضجر :

ـ (مصر) يا أستاذ .. صح النوم .

نطقها ، وكأنه يقول فى أعماقه :

ـ (عالم جبلاّت .. أنا عارف إزاى بيجيلهم نوم فى القطر ؟!!)

واستيقظت ، وتثاءبت ، ونهضت فى تكاسل ألذّ من الصل ، وحملت حقائبى ، مستمتعًا بالنوم ، لأوّل وآخر مرة ، فى وسيلة سفر ، وغادرت رصيف (القاهرة) ، لأحجز تذكرة فى قطار (طنطا) ، وأجلس فى انتظار القطار ، الذى سيحملنى إلى مدينتى أخيرًا ..

وفى (طنطا) ، شعرت بالحرية والأمان والألفة ، وأسرعت إلى نادى

الأطباء ؛ لمقابلة الزملاء والأصدقاء ، متصورًا أن رحلة الغربة قد انتهت ، وأننى قد بدأت مرحلة الاستقرار ، فى محافظتى (الغربية) ..

ولكننا فى (مصر) ..

والجملة الاعتراضية السابقة قد لاتعنى شيئًا ، أو قد تعنى كل شىء ، وهذا يتوقف على عدة عوامل ، أهمها موقعك فى المجتمع ، ومقدار تفاعلك معه ، وما إذا كنت مستيقظًا ، أم غائبًا عن الوعى ..

ففى مديرية الشئون الصحية بمدينة (طنطا) ، وبعد توزيعى على وحدة صحية ريفية أخرى ، فى (قرية سجين الكوم) ، التابعة لمركز (قطور) ، فوجئت بأن خطاب استلام العمل يفيد بأننى منتدب فى (الغربية) ، ولست منقولاً ، كما يقول الخطاب ، الذى أتيت به من محافظة (قنا) ..

ولأننى ساذج وعبيط ، ولدى فترة خدمة صعيدية محترمة ، تعاملت مع الأمر ببساطة ، واعتبرتها مجرد مشكلة إدارية بسيطة ، لن تلبث أن تجد طريقها إلى الحل ، إن عاجلاً أو آجلاً ..

وكما يقولون : نمت فى العسل نومًا ..

حتى جاء أوّل الشهر ..

وبنفس السذاجة والعبط ، وقفت فى طابور الرواتب ، فى انتظار راتبى ، الذى لم أعد أمتلك سواه ، فى تلك المرحلة ، التى حمل فيها إصبعى دبلة الخطبة ، وحمل فيها رأسى ألف هم وهم ، لمطالب لابد أن تتحقّق ، حتى تتحوّل الخطبة إلى زواج ..

ثم جاء دورى ، وابتسم كاتب الوحدة الصحية فى (سجين الكوم) ، وهو يخبرنى بكل بساطة أنه لايوجد راتب لى !!

وبكل ذعر الدنيا ، صرخت :

ـ يا نهار مش فايت ! طب ليه .

وبابتسامة حملت شيئًا من السخرية والشماتة ، أخبرنى الكاتب أننى منتدب ، ولست منقولاً ، وهذا يعنى أنه ينبغى أن أصرف راتبى من محافظة (قنا) ، وليس من (الغربية) ..

وحتى بعد هذا ، تصوّرت أن المشكلة لها حل (شوف السذاجة) ، ولكن محافظة (قنا) تمسكت بأننى منقول إلى (الغربية) ، ولست منتدبًا ، وأن (الغربية) هى المسئولة عن صرف راتبى ..

ورحت أنا أجرى بين (قنا) و(الغربية) ، فى محاولة لصرف راتبى ..

ولكن هيهات ..

ألم أقل لك : إننا فى (مصر) !!

ومع إرهاقى ، ويأسى من الحصول على راتبى ، الضائع بين محافظتين ، يفصل بينهما ما يقرب من ألف كيلومتر ، اقترح علىّ صديقى وزميلى الدكتور (محمد حجازى) ، أن نفتتح عيادة صغيرة فى نفس القرية ، التى أعمل فيها ، كمحاولة لتدبير بعض الدخل ، حتى يستيقظ ضمير العالم ، ويمكننى صرف راتبى المتوقّف من شهور وشهور ..

وبكل ما تبقّى من مدخرات فترة العمل فى الصعيد ، افتتحت العيادة ، مع زميلى الدكتور (محمد حجازى) (أستاذ الطب الشرعى والسموم حاليًا) .

وفى العيادة جلسنا (حجازى) وأنا ، نحلم بالنجاح والثراء ، وننتظر قدوم الزبائن ..

أى زبائن ..

ومضى شهر آخر ..

وشهر إضافى ..

وشهر رمضان ..

ولم يتجاوز زبائن عيادتنا أصابع اليدين ..

وبدلاً من أن تقدّم لى العيادة مصدرًا للدخل ، التهمت ما تبقى من مدخراتى ، وجعلتنى أصل إلى ما يصفه أولاد البلد (فى وجه بحرى طبعًا) ، بأننى « على الحديدة » ..

بل لقد فكّرت فى الذهاب إلى سوق الحدادين ، للبحث عن مشتر للحديدة نفسها ..

وفى غمرة اليأس والفقر والإفلاس ، توقّفت مؤقتًا عن التدخين ، وكنت أيامها مدخنًا شرهًا ، أستهلك ما بين ثمانين إلى مائة سيجارة يوميًا ، ولكننى توقّفت تمامًا عن التدخين ؛ لأننى لم أكن أمتلك ثمن

سيجارة واحدة ، ورحت أسير من حيث أقيم إلى محطة القطار ، حتى يمكننى توفير ثمن تذكرة (الأوتوبيس) ..

صحيح أن أسرتى كان يمكنها أن تساندنى ماليًا ، فى تلك الفترة ، لأن والدى (رحمه الله) ، كان يمتلك مكتبًا للمحاسبة ، يدر دخلاً جيّدًا ، إلا أننى كنت أشعر بالخجل ، من طلب النقود من والدى ، بعد أن أصبحت طبيبًا ، وتقدّمت لخطبة فتاة أحلامى ، وسافرت للعمل فى الصعيد ..

كان من العسير بعد كل هذا ، أن أخبره أننى مفلس تمامًا ، ولا أملك شروى نقير (ولو أننى أجهل تمامًا ما هو هذا النقير) ..

وكعادتى ، احتفظت بأزمتى فى أعماقى ، ولم يعلم بما أعانيه سوى خطيبتى ، وصديق عمرى (محمد حجازى) ، الذى أقرضنى خمسة جنيهات ، شعرت لحظتها أنها ثروة ، ورحت أنفق منها بمنتهى الحذر ، خشية أن تنفد ، قبل أن يصل الراتب من دهاليز الحكومة ..

وفى تلك الفترة أيضًا ، وبينما كنت أستعد لركوب قطار الدرجة الثالثة ، المعدّلة لتتساوى مع الدرجة العاشرة آدميًا ، ابتعت مجلة صغيرة ، تصدر عن الهيئة العامة للكتاب ، لأطالعها فى القطار ..

كان ثمنها أيامها قرشين فحسب (لو أن هذا الجيل يعرف ما هو القرش) ، ولم أجد فيها فى الواقع ، ما يجذبنى لقراءته ، سوى شيئين اثنين ، لا ثالث لهما ..

دراسة عن قانون حق المؤلف ، ومسابقة على الغلاف الأخير ..

المسابقة كانت تعلن عنها المؤسسة العربية الحديثة ، للطبع والنشر والتوزيع ، حول كتابة قصص من الخيال العلمى للشباب ، وكان آخر موعد للتقدُم للمسابقة ، هو آخر أيام يوليو ، عام ١٩٨٤م ..

وفى العيادة ، ولأننى أعانى هناك من وقت فراغ ضخم وكبير ، رحت أضع بدايات قصة من قصص الخيال العلمى ، أطلقت عليها أيامها اسم (أشعة ضاد) ..

لم تكن الفكرة جديدة بالنسبة لى ، فقد كنت أكتب الكثير من القصص والأفكار الخيالية فى أثناء عملى فى (أبورياب شرق) ، وكانت هذه واحدة من الأفكار ، التى راقت لى أيامها ، والتى بدت متناسبة تمامًا ، مع ما تطلبته المؤسسة فى مسابقتها ..

ولأن وقت الفراغ كبير ، راحت الصفحات تمتلئ وتمتلئ فى سرعة ، ولم تمض أيام ثلاثة ، حتى كنت قد انتهيت من كتابة القصة ..

وبعد انتهائى منها ، وضعتها فى درج المكتب فى العيادة ، وسيطرت علىَّ حالة اليأس والإحباط ، المصاحبة فى المعتاد للإفلاس والضيق ، فأهملت أمرها ، ونسيت أمر المسابقة كلها تمامًا ..

وذات يوم ، فى بدايات الأسبوع الأخير من يوليو ، فوجئت بزميلى الدكتور (حجازى) يعود من العيادة ، وهو يحمل القصة معه ، ليخبرنى أنها قصة جيِّدة ، ويسألنى لماذا كتبتها ..

وشرحت له الأمر كله ..

المسابقة ، وقصص الخيال العلمى .. إلخ ..

وتحمَّس الدكتور (حجازى) كثيرًا للفكرة ، وطلب منى تقديم القصة للمسابقة ، وشاركه فى هذا زميلنا (أشرف صبحى) ، إلا أن حالة اليأس والإحباط ، التى كنت أعانى منها ، منعتنى من مشاركتهما ، حماسهما فأخبرتهما أن الأمر لا يعنينى تمامًا ، وأننى لا أظن أن قصتى يمكن أن تلقى قبولاً ، بل وتماديت إلى حد الاقتناع بأن إعلان المسابقة هو إجراء وهمى تمامًا ، وأن الفائز فيها محدد مسبقًا ..

ولأننى يائس وعنيد ، تعاون الدكتور (محمد حجازى) مع الزميل (أشرف صبحى) ، وقاما بكتابة القصة على الآلة الكاتبة ، باعتبار أنه لم تكن هناك أجهزة كمبيوتر منزلية أيامها ..

وفى يوم ٣٠ يوليو ١٩٨٤م ، حاول الاثنان إقناعى بالسفر ، فى الصباح التالى ، باعتباره آخر أيام المسابقة ، لتسليمها إلى المؤسسة ..

ولكننى رفضت تمامًا ..

يومها ، تصوَّر كلاهما أن الأمر مجرَّد عناد بحت ، ولكنه كان فى الواقع خجلاً من أننى لا أملك مالاً يكفى للسفر إلى (القاهرة) ، بعد أن التهمت المصروفات اليومية ، التى أقتصد فيها إلى أقصى حد نصف ما أقرضنى إياه (حجازى) ، ولم يكن فى استطاعتى (نفسيًا) ، أن أقترض قرشًا إضافيًا ، أيًا كانت الأسباب ..

المهم أن (أشرف) لم يرق له رفضى هذا ، فقرّر أن يسافر بنفسه إلى (القاهرة) ؛ لتسليم القصة ، وإنجاز بعض الأعمال هناك ، فى الوقت نفسه ..

والعجيب أننى لم أبال كثيرًا بهذا ، وتصوّرت أنهما يبذلان جهدهما دون طائل !!

وسافر (أشرف) فى اليوم التالى ، وأنجز أعماله كلها أوّلاً ، ثم اتجه إلى المؤسسة فى نهاية اليوم ، لتسليم القصة ..

وفى اللحظة التى وصل فيها (أشرف) إلى المؤسسة ، كانت تغلق أبوابها ، فى نهاية آخر يوم من أيام العمل فى شهر يوليو ، وآخر لحظة من لحظات التقدُّم للمسابقة ..

ولكن القدر كان مصرًّا على المضى حتى النهاية ..

لقد رفض (أشرف) الانصراف ، وأصرّ على تسليم القصة ، حتى ولو تعطّل إغلاق المؤسسة ..

ولأنه عنيد ومثابر ، اضطروا لاستلام القصة منه ، بعد اتصالهم هاتفيًا بأستاذى الأستاذ (حمدى مصطفى) ، صاحب ومدير المؤسسة ، واستئذانه فى هذا ..

وهكذا .. كانت قصتى (أشعة ضاد) ، هى آخر قصة يتم استلامها فى المسابقة ، فى آخر دقيقة عمل ، مساء ٣١ يوليو ١٩٨٤م ..

وأخبرنى (أشرف) أنه قد سلم القصة ، ولم أشعر بأدنى اهتمام فى أعماقى ، فى غمرة يأسى وإحباطى ..

كان كل همى أيامها أن أحصى ما تبقى من الجنيهات الخمسة ، وأن أضع خطة إنفاق المتبقى ، بحيث يكفى لأطول فترة ممكنة ..

أما خطيبتى ، فقد أخفت الأمر عن أهلها بالطبع ، واكتفت بأن نتنزّه معًا سيرًا على الأقدام ؛ لعلمها بأننى لا أمتلك ثمن كوب شاى ، فى أى (كازينو) حقير ..

وفى يوم السابع من أغسطس ، كنا نتنزّه معًا ، عندما توقفت هى أمام سجادة أنيقة ، فى واجهة أحد محال القطاع العام ، وأبدت إعجابها الشديد بها ، ورغبتها فى اقتنائها ، ولكننى ذكّرتها بأنها مخطوبة لأكثر أهل الأرض إفلاسًا ، وأنه عليها أن تمحو الفكرة من رأسها تمامًا ..

ليلتها ، عدت إلى حيث أقيم ، وأنا أشعر بإحباط ويأس أكثر ، و ...

وفوجئت باتصال هاتفى من والدى (رحمه الله) ..

اتصال ، أخبرنى فيه أن خطابًا قد وصل باسمى ، من (المؤسسة العربية الحديثة) ، وسألنى عما إذا أردت أن يفتحه ، ويقرأه على مسامعى أم أننى أفضل قراءته بنفسى فيما بعد ..

وبمنتهى اللهفة ، طلبت منه قراءة الخطاب .

وكانت مفاجأة كبيرة ..

الخطاب كان يحمل اسم المؤسسة ، مع طلب بحضورى إلى مقرّها الرئيسى فى المنطقة الصناعية فى حى العباسية ، للتعاقد بشأن القصة التى قدمتها ..

قصة (أشعة ضاد) ..

ولا يمكننى أن أصف مدى سعادتى ولهفتى يومها ، على الرغم من أننى لم أتصوّر لحظة واحدة ، أن هذا الخطاب سيغير مسار حياتى كلها ، وإنما كان مصدر سعادتى كله ، هو أن هذا سيعنى جائزة ..

والجائزة ستعنى انفراجة مالية ..

أخيرًا ..

وأنهيت المحادثة مع والدى ، وجسدى كله يرقص فرحة ..

ثم فجأة ، ذهبت السكرة وجاءت الفكرة كما يقولون ..

الخطاب يطلب منى السفر إلى مقر المؤسسة فى (القاهرة) للتعاقد !! طب منين !!

وبسرعة ، رحت أحصى ما تبقى معى ، من الجنيهات الخمسة المقدّسة إياها ..

كنت أمتلك مائتين وخمسة وثلاثين قرشًا بالضبط ..

ولأننى أجهل تمامًا تكلفة السفر إلى العاصمة ، فقد رحت أضرب لخمسًا فى أسداس ، حتى مطلع الفجر ، عندما اتخذت قرارى بالسفر ، أيًا كانت النتائج ..

وبعد الفجر بقليل ، حملت حقيبة أنيقة ، حوت صحيفة اليوم

فقط ، وخرجت مرتديًا حلة صيفية أنيقة ، لأسير إلى محطة القطار (توفيرًا للنفقات) ، ثم ابتعت تذكرة (عودة يومية) ، فى أحد قطارات الدرجة الثالثة ، باعتبار أن هذه أرخص وسيلة للسفر إلى (القاهرة) ، وكانت تساوى خمسة وأربعين قرشًا بالتمام والكمال ، فى ذلك الوقت ..

وكان هذا يعنى أن أسافر إلى (القاهرة) ، وأنا لا أحمل فى جيبى سوى مائة وتسعين قرشًا فحسب !!

وسافرت ..

ولأننى أرتدى حلة أنيقة أكثر مما ينبغى ، وأحمل حقيبة لم يعتد حملها إلا رجال الأعمال والشخصيات المهمة فى ذلك الوقت ، أفسح لى الكل مكانًا كبيرًا ، فى قطار الدرجة الثالثة غير المكيفة ، وتعاملوا معى بحذر وتحفُّظ غير طبيعيين ، وكأننى مسئول كبير ، متنكر ليتابع أحوال الدرجة الثالثة (آل يعنى ده بيحصل !) ..

وفى الثامنة إلا عشر دقائق من صباح الثامن من أغسطس ١٩٨٤م ، وصلت إلى (القاهرة) ، وغادرت محطة مصر ، لأرى أمامى طوفانًا من البشر ، لم أعتد رؤيته فى مدينتى (طنطا) ، ولا فى قلب الصعيد بالطبع ..

ولأننى غريب ، والغريب أعمى ولو كان بصيرًا ، كما تقول الحكم الشعبية القديمة ، فقد رحت أسأل عن تلك المنطقة الصناعية

فى (العباسية) ، التى لم أكن أعلم عنها ، سوى أنها تضم مستشفى الأمراض النفسية والعصبية الشهير ..

سألت المارة ، وسائقى الأوتوبيسات ، ورجال المرور ، وحتى باعة الصحف ..

ولكن أحدًا لم يكن يعلم أين تلك المنطقة الصناعية فى العباسية ..

وأخيرًا ، جاء سائق إحدى سيارات الأجرة ، وأخبرنى أنه يعلم أين هى ، ولكنه لا يعرف كيفية وصف الوصول إليها ..

ولأنه خبيث ، وأنا غر ساذج ، قادم من الأقاليم ، فقد وافق على حملى إلى المكان مقابل جنيه فقط ..

ومزقت قلبى كلمة فقط ، التى نطقها فى بساطة ، دون أن يدرك أن ما يطلبه يتجاوز نصف ما أحمله بالفعل ، ولكننى وافقت ، وركبت السيارة الأجرة ، وأنا أمنى نفسى بأننى سأحصل على جائزة ، ستكفينى لركوب أوتوبيس خاص فى أثناء عودتى (شوف السذاجة) ..

المهم أن السائق قد حملنى إلى ميدان (العباسية) ، ثم أنزلنى هناك ، و(لهف) الجنيه ، وبعدها سألته عما إذا كانت هذه هى المنطقة الصناعية ، فأجابنى مبتسمًا بأن هذه هى (العباسية) ، ولكنه لا يعرف أين المنطقة الصناعية ..

قالها ، وتركنى منصرفًا ، وأنا ذاهل واجم ، ألعن كل سائقى سيارات الأجرة فى سرى ، وأبكى من أعمق أعماقى ، على الثروة التى فقدتها دون طائل ..

وبدأت رحلة بحث جديدة ، ورحت أسأل مرة أخرى عن المنطقة الصناعية ، حتى أرشدنى إليها أحدهم ، فقطعت الطريق إليها سيرًا على الأقدام ، تحت شمس أغسطس اللطيفة ، حتى غمر العرق جسدى كله ، وبدأت أتساءل عما إذا كان الانتحار ، فى مثل هذه الأحوال ، جريمة دينية وقانونية ، ام أنه يعتبر واجبًا قوميًا لأمثالى ..

وقبل أن أتوصل إلى قرار فى هذا الشأن ، وجدت نفسى أمام المؤسسة فى قلب المنطقة الصناعية ، فالتقطت نفسًا عميقًا ، ودخلتها بكل الثقة ، مرفوع الرأس ، أسأل عن الأستاذ (حمدى مصطفى) ، وأعلن أننى هنا بخصوص المسابقة ، وبخصوص قصتى (أشعة ضاد) ..

واستقبلنى (عادل عبد الحميد) ، مدير مكتب الأستاذ (حمدى) حينذاك ، بالكثير من المودّة والترحاب ، وأخبرنى أن الأستاذ (حمدى) لا يأتى فى مثل هذه الساعة ، وكانت التاسعة تقريبًا ، ولكنه يأتى فى الثانية عشرة ؛ لأنه ينصرف قبل نهاية اليوم بعد غروب الشمس ، وطلب منى أن أعود فى منتصف النهار ..

وكانت صدمة بالنسبة لى ..

أعود ؟! هذا يعنى أن أذهب ، وأن أقطع المسافة نفسها سيرًا على الأقدام ، تحت شمس أغسطس ، ثم أعود مرة أخرى ، وقد فقدت مائة كيلو على الأقل ، وتحولت إلى كائن ميكروسكوبى دقيق ، وربما وحيد الخلية أيضًا !!

وبمنتهى الحزم ، أخبرت (عادل) أننى لن أذهب ، وسأنتظر الأستاذ (حمدى) ، حتى ولو وصل بعد منتصف الليل ..

ولم يعترض (عادل) قط ، وإنما اصطحبنى بمنتهى الجدعنة إلى حجرة مجاورة لحجرة مكتب الأستاذ (حمدى) ، وأحضر لى مجموعة كتب لمطالعتها ، وكوب شاى ساخن وتركنى هناك ، وراح يطمئن على راحتى كل ربع ساعة تقريبًا ، بمودّة وشهامة زائدتين ، حتى خُيّل إلىّ أننى أحد أقرب أقاربه ، ولست مجرّد فائز فى مسابقة ، أتى للتعاقد بشأن قصته ، ويحلم بمكافأة تخرجه من أزمة مالية طاحنة ..

وفى الثانية عشرة تقريبًا ، وصل الأستاذ (حمدى) ، ودعانى لمقابلته ، وفى مكتبه استقبلنى بنفس الترحاب والمودّة البسيطة ، ثم أخبرنى بأجمل شىء سمعته فى حياتى كلها ..

أخبرنى أنه من بين عشرات أو مئات القصص ، التى وصلت إلى المؤسسة ، بسبب المسابقة ، لم يشعر أن هناك قصة تناسب ما يريده ، أكثر من قصتى (أشعة ضاد) ..

وبعدها راح يسألنى عن نفسى ، وعن شهادتى ، ثم سألنى عن موعد عودتى إلى (طنطا) ، وعن القطار الذى حجزت فيه تذكرة العودة ..

وفى موقف كهذا ، كان من العسير أن أخبره أننى أتيت بتذكرة عودة اليومية فى قطار من قطارات الدرجة الثالثة ، وأن مثل هذه القطارات العظيمة لا تحتاج إلى حجز ، ولكن إلى القفز فوق أحد المقاعد ، والتشبث به إلى حد الاستماتة فحسب ..

لذا ، فقد أخبرته أننى سأعود فى قطار الثانية ، ولم أكن أعلم حتى ما إذا كان هناك قطار إلى (طنطا) ، فى الثانية أم لا ..

وفى بساطة ، طلب منى الأستاذ (حمدى) البقاء حتى الواحدة والنصف ، على أن يرسل سيارته لتوصيلى إلى المحطة ، فى ذلك الموعد ..

لحظتها شعرت بالارتياح ؛ لأن هذا يعنى ادخار التسعين قرشًا المتبقية فى جيبى ، خاصة وأن الأستاذ (حمدى) طوال حديثه معى ، لم يذكر كلمة جائزة أو مكافأة ، أو حتى كلمة مسابقة ، ولو مرة واحدة ..

لقد تحدثنا عن القصة ، وعن أبطالها ، وفكرة اختيار فريق علمى ، وبخاصة الخبير النفسى فيه ، ثم سألنى عما إذا كنت سأجعل ذلك الفريق ، ورئيسه (نور) ، هم أبطال كل الروايات التالية !

وكانت هذه هى أوّل إشارة إلى أن الأمر لا يقتصر على قصة واحدة ، فازت بمسابقة محدودة ، وإنما يمتد إلى سلسلة طويلة ، لا أحد يعلم كم من العناوين ستندرج تحتها ..

وبالنسبة لى ، كما تصوَّرت لحظتها ، كانت إشارة إلى أنه لا توجد هناك جائزة أو مكافأة ، وإنما تعاقد طويل الأمد ..

ومرَّ الوقت بسرعة ، ونحن نتحدَّث عن الروايات ، والقصص ، والمستقبل المنتظر ، و ..... ، و .....

وفجأة ، أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة والثلث وكان هذا يعنى أن أستعد للانصراف ، للحاق بالموعد الذى حدَّدته مسبقًا ..

ونهضت بالفعل ، لأخبر الأستاذ (حمدى) أننى سأنصرف ، فصافحنى بحرارة وهتف ينادى (ويليام) ، ليقلنى إلى محطة القطار ، وهو يناقش معى موعد لقائنا التالى ..

ولكن أيضًا دون إشارة واحدة إلى جائزة أو مكافأة ، أو حتى قرشين ثمنًا للمواصلات ..

وركبت السيارة مع (ويليام) ، الذى انشغل فى مناقشة أمر ما ، مع أحد العاملين بالمطبعة ، وأنا فى السيارة ، أفكِّر فى القروش التسعين التى سأعود بها إلى (طنطا) ، بعد أن تهوَّرت ، وأنفقت أكثر من نصف ثروتى ، فى مغامرة السفر إلى (القاهرة) ..

وعاد (ويليام) إلى السيارة ، واستعد للانطلاق بها ، و .....

وفجأة ، وجدت الأستاذ (حمدى) يخرج مسرعًا من المطبعة ، ويهتف بـ (ويليام) أن يتوقف ، ثم يتجه إلىَّ ويعتذر بشدة ، على أن الحديث قد جذبنا ، فنسينا أن نوقِّع عقد اتفاق فيما بيننا ، وبعدها التفت إلى (ويليام) ، يسأله إن كان يحمل نقودًا أم لا ..

ولقد أدهشنى هذا كثيرًا ، فلم أكن أعلم أيامها أن (ويليام) يعتبر السكرتير الشخصى للأستاذ (حمدى) ، وتصوَّرت أنه سائق سيارته فحسب ، وتساءلت : كم يمكن أن يحمل السائق من نقود ، وخُيِّل إلىَّ أن الأستاذ (حمدى) سيعطينى قرشين للمواصلات فحسب ، وضايقنى هذا كثيرًا ، وأنا أراقبهما يتحدثان فى اهتمام ، ثم يغيبان فى المطبعة لحظات ، وعاد (ويليام) بعدها إلى مقعد القيادة ، فى حين أعطانى الأستاذ (حمدى) مظروفًا منتفخًا ، وهو يعتذر مرة أخرى عن عدم توقيع العقد ، ويخبرنى أنه يعتبر هذا المبلغ مقدَّم أتعاب ، حتى نلتقى فى المرة القادمة ..

وانطلق (ويليام) بالسيارة ، وكل ذرة فى كيانى تلتهب فضولاً ..

تُرى كم يحوى هذا المظروف المنتفخ ؟!

وبحسبة بسيطة فإنه حتى ولو كان يحوى جنيهات (فرط) ، فسيضم مبلغًا يفوق ما أملكه بالفعل بعشرات المرات ..

واسترخيت فى مقعدى بارتياح ، حتى وصل (ويليام) إلى المحطة ، وغادرت السيارة ، وهو يسألنى عما إذا كنت أرغب فى الذهاب إلى أى مكان آخر ، وبعدها حياتى منصرفًا ..

وبينما ينطلق بالسيارة ، أخرجت المظروف فى لهفة ، وفتحته ، وألقيت نظرة سريعة على محتوياته ، قبل أن يخفق قلبى بمنتهى العنف .

فالورقة الأولى ، كانت عبارة عن عشرين جنيهًا دفعة واحدة .

ويا لها من ثروة ..

وصدقونى ، لقد شعرت لحظتها أننى مليونير .. بل ملياردير ، وبدا لى أننى قادر على منافسة (أوناسيس) نفسه ..

وبكل الحزم ، أخرجت تذكرة العودة اليومية ، فى الدرجة الثالثة ، وألقيتها بطول ذراعى ، معلنًا انتهاء مرحلة الفقر والإفلاس ..

وبمنتهى الثقة ، اتجهت إلى نافذة حجز الدرجة الأولى ، وطلبت تذكرة لمدينة (طنطا) ..

كانت الساعة تقارب الثانية ، وهناك قطار سينطلق إلى (طنطا) ، خلال أقل من نصف الساعة ، ولكن لم تكن به مقاعد خالية فى الدرجة الأولى ؛ لذا فقد قرَّرت الانتظار ، حتى موعد قطار الرابعة ، لأحصل على تذكرة درجة أولى مكيَّفة (عقد نفسية بقى) ..

وفى انتظار موعد القطار ، اتجهت إلى بائع الصحف ، وابتعت كومة من الصحف والمجلات ، لم تتجاوز كلها العشرين جنيهًا ، بأسعار تلك الأيام ..

وكإثبات للثراء والفخفخة ، اشتريت (خرطوشة سجائر إنجليزية) ، ألقيتها فى حقيبتى الفارغة ، التى امتلأت بالكتب والصحف والمجلات ، واتجهت إلى كافيتيريا المحطة ، التى لم أكن أجرؤ على الاقتراب

منها من قبل ، فى أثناء قدومى فى الصباح ، وطلبت وجبة غذاء مع مشروب غازى ، وجلست أطالع الصحف ، مثلما سيفعل أى مليونير زميل ، المضحك أننى ، وعندما ركبت القطار ، وجلست فى مقعد من مقاعد الدرجة الأولى ، التى كدت أنسى هيئتها ، منذ آخر مرة عدت فيها من (قنا) ، كانت مضيفة القطار تسأل عمن يرغب فى تناول وجبة الغداء ، وعلى الرغم من كونى متخمًا من الطعام والشراب فى الكافيتيريا ، وجدت نفسى أطلب منها وجبة غداء ، وأنا أقول لنفسى فى أعماقى :

- (أيوه غدا .. هو إحنا فقراء واللا ايه) !

وجاءت وجبة الغداء الثانية ، التهمتها بشهية مفتوحة ، حتى إننى وصلت إلى طنطا بكرش كبير ، يشبه كرش أى مليونير محترم ، واتجهت على الفور إلى محل القطاع العام ، وابتعت تلك السجادة ، التى كانت تحلم بها خطيبتى ، وحملها عامل إلى سيارة الأجرة ، التى أقلتنى إلى منزلها ، الذى دخلته مثل (عنتر بن شداد) ، وخلفى من يحمل نياق كسرى الحمر .. أقصد السجادة إياها ..

وكانت نقطة تحوُّل كبرى ، فى مسار حياتى كلها ..

ففى زيارتى التالية للأستاذ (حمدى) ، تغير اسم قصتى إلى (أشعة الموت) ، وحملت السلسلة اسم (ملف المستقبل) ، وقدَّمت العدد الثانى منها ..

وبعدها توالت الأعداد ، وظهرت سلسلة (رجل المستحيل) ، ثم سلاسل أخرى ، وأخرى ، وأخرى ..

وكان هذا هو الفصل الأوّل من رحلة طويلة ، استمرّت حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

والفصل الأخير من رحلة أخرى طويلة ، ومرهقة وجميلة فى الوقت نفسه ..

رحلة طبيب أديب ..

فى صعيد (مصر) الجوّانى .. قوى ..

* * *

[تمت بحمد الله]

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
أسطورة
اسمها أطلانطس
دراسة
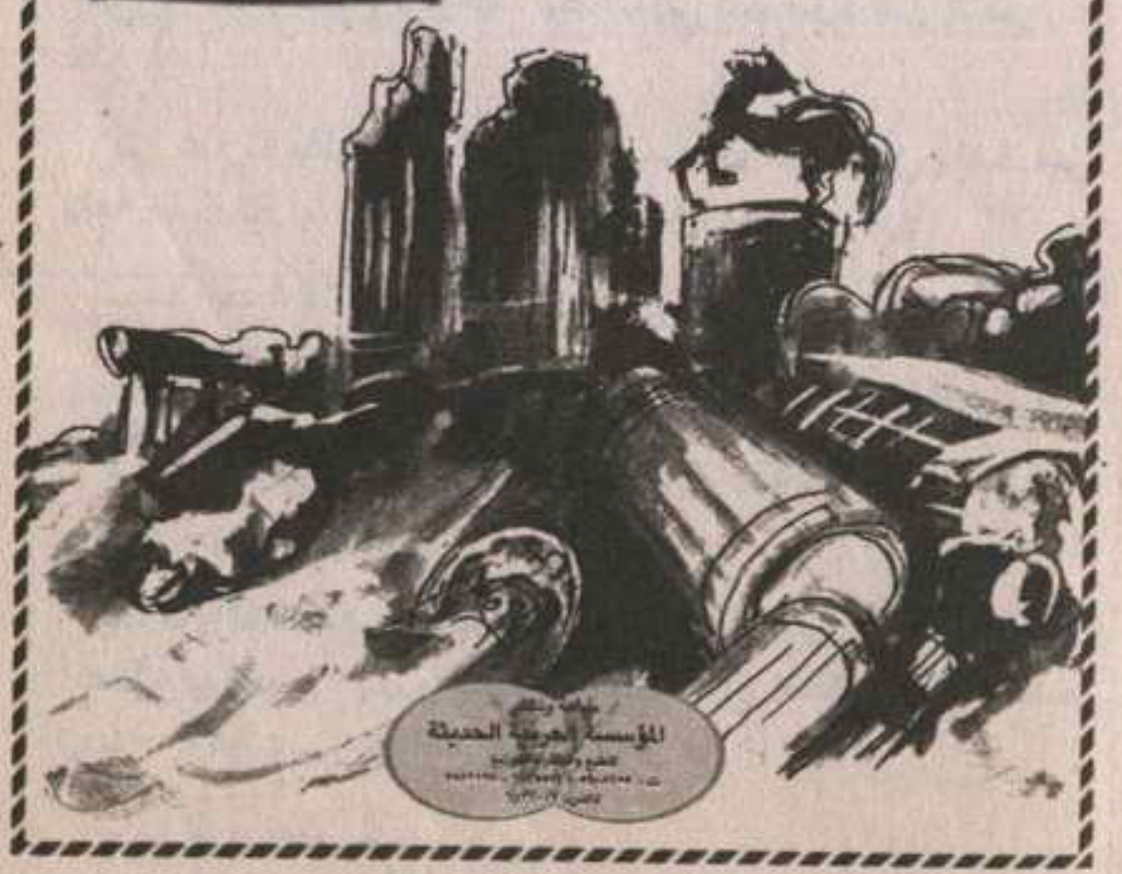

١ ـ المحــاورة ..

●غابت شمس الصيف أو كادت فى ذلك اليوم من أيام عام ١٩٦٨م ، وبهر مظهرها الفـاتن طيارين أمريكيين ، كانا يحلقان فوق جزر (البهاما) ، حتى إن أحدهما هتف مشدوهًا :

ـ ياللروعة ! أظننى لن أمَل هذا المشهد أبدًا .

غمغم زميله ، وهو يراقب المشهد الساحر :

ـ صدقنى يا رجل .. مامن مخلوق حى ، ينبض فى جسده عرق واحد ، يمكنه أن يمل غروب الشمس ، فالمدهش أن هذا المشـهد ، على الرغم من تكراره يوميًا ، يختلف فى كـل مـرة عن الأخرى ، حتى إن ..

بتر عبارته بغتة ، مع شـهقة مكتومـة ، وهو يحدّق ذاهلاً فى بقعة ما ، بالقرب من الشاطئ ، فهتف به زميله فى قلق :

ـ ماذا حدث ؟! هل أصابك مكروه ؟!

كاد صوت الطيار ينفجر مع انفعاله الجارف ، وهو يهتف :

ـ انظر .. هنـاك .. عند الشمال الغربى .. بـالقرب من الشــاطئ .. يا إلهى ! إنها .. إنها ..

بدا من الواضـح أن انفعالـه يمنعـه مـن التعبير عمـا يـدور فـى أعماقـه بوضوح ، بل ويحبس الكلمات فـى حلقـه أيضًا ، فتمتـم زميله ، وهو يدير عينيه إلى حيث أشار هو :

ـ ما الذى يمكن أن ..

بتر عبارته بدوره ، واكتظّ كيانه كله بانفعال مماثل ، وهو يحدّق فى بقايا جزرية ، طفت على سطح المحيط بـالقرب من الشـاطئ ، حاملـة بعض أطلال قديمـة متآكلـه ، تشبه إلـى حـد مـا المعـابد الرومانية القديمة ، واحتبست الكلمات فى حلقه للحظات ، قبل أن يهتف بصوت مختنق :

ـ هذا لم يكن هنا أمس .

أجابـه زميلـه ، وهـو ينخفض بطائرتـه ، ليـدور حـول البقايـا والأطلال ، وذلك الانفعال لم يفارقه بعد :

ـ بالتأكيد .. لقد برز صباح اليوم .. أو مساء أمس على أقصـى تقدير .

هتف الأوّل :

ـ تُرى ما الذى يمكن ان يكونه هذا ؟!

بذل زميله جهـدًا حقيقيًا ؛ ليجيب السـؤال ، إلا أنه لم يستطع سوى أن ينطق بكلمة واحدة مختنقة :

ـ النبوءة .

سأله الطيار الأوّل بمنتهى الدهشة :

ـ أية نبوءة ؟!

أجابه زميله ، وهما يواصلان الدوران بطائرتيهما حول الأطلال التى بدت وكأنها توشك على الانهيار ، بعد أن قضت مئات السنين ، تحت سطح المحيط :

ـ نبوءة (كايس) .. لقد قال : إنها ستظهر هنا .

هتف الطيار ، وقد تضاعفت دهشته :

ـ قال : إنها ستظهر هنا ؟! وما هذه بالضبط .

أجابه زميله فى انفعال :

ـ الأسطورة .

ثم ارتجف صوته ، مع تضاعف انفعاله ، وهو يضيف :

ـ أسطورة (أطلانطس) .

وكانت لحظة تاريخية ..

بحق ..

* * *

بدا الأمر كله بمحاورة ..

محاورة سجلها لنا التاريخ ، قبل أربعة وعشرين قرنًا من الزمان ..

ففى القرن الرابع قبل الميلاد ، وحوالى عام ٣٣٥ ق.م . ، ذكر الفيلسوف الإغريقى الأشهر قصة (أطلانطس) ، فى اثنتين من محاوراته الشهيرة ، وهما محاورة (تيماوس) ، ومحاورة (كريتياس) ..

وفى محاوراته ، جمع (أفلاطون) بين أربعة ، وهم : الفلكى الإيطالى (تيماوس) والشاعر والمؤرّخ (كريتياس) ، والقائد العسكرى (هرموقراطيس) ، أما الصديق الرابع فكان (أفلاطون) نفسه ..

ولقد جمع (أفلاطون) ـ فى محاورته ـ الأربعة فى منزل (كريتياس) ، حيث دارت المحاورات بينهم ، حول (أطلانطس) ، التى أشار إليها (هرموقراطيس) ، باعتبارها جزء من التراث القديم المندثر ، وهنا راح (كريتياس) يروى القصة التى سمعها من أجداده ، على لسان جده الأكبر (صولون) ..

و(صولون) هذا شخص حقيقى ، ومشرّع أثينى كبير ، زار (مصر) بالفعل ، عام ٥٩٠ ق .م . ، وروى أنه قد سمع من كهنة (سايس) ، وهى مدينة فى شمال دلتا (مصر) قصة عن إمبراطورية أثينية عظيمة ، سادت حوال عام ٩٦٠٠ ق .م. ، وعاصرتها ، فى الزمن نفسه ، إمبراطورية عظيمة أخرى ، تسمى (أطلانطس) ، تقع خلف أعمدة (هرقل) ، أو (مضيق جبل طارق) فى زمننا هذا ..

وقبل أن يتبادر إلى الأذهان أن كهنة قدماء المصريين كانوا يقصدون قارة (أمريكا) بروايتهم هذه ، يتابع (صولون) قائلاً : إن تلك القارة كانت أكبر من شمال (إفريقيا) و(آسيا الصغرى) معًا ، وخلفها كانت هناك مجموعات من الجزر ، تنتهى بقارة عظيمة أخرى ..

وفى قصتهم ، قال كهنة المصريين القدامى ، أن سكان (أطلانطس) كانوا يعيشون فى سلام ، وكانت قارتهم أشبه بجنة اللّه فى الارض ، حتى سرت فيهم روح العدوان ورغبة الاستعمار ، فانطلقوا يستولون على شمال إفريقيا ، حتى حدود (مصر) ، وجنوب (أوروبا) حتى (اليونان) ، وكادوا يسيطرون على العالم أجمع ، لولا أن تصدّت لهم (أثينا) ، وانقضت عليهم بأسلحة رهيبة ..

وفى القصة ، حدث دمار وخراب هائل ، خلال ليلة واحدة ، وتفجرت الزلازل والفيضانات ، التى دفنت مقاتلى (أثينا) تحت الأرض ، وأغرقت قارة (أطلانطس) كلها فى قلب المحيط ..

القصة لم تسجلها أوراق البردى فى مصر القديمة ، ولم تحملها جدران المعابد الفرعونية ، ولكن سجلتها فقط محاورة (كريتياس) ، التى كتبها (أفلاطون) ؛ ليضعنا أمام أكبر لغز حضارى فى التاريخ ..

ترى هل نقل الفيلسوف الإغريقى المحاورة بأمانة ، أم أن الأمر كله كان مجرد سرد قصصى درامى أنيق ، سجّله (أفلاطون) فى شكل محاورة ، حتى يطرح من خلاله أفكاره ، وتصوراته ، ورؤيته للمدينة الفاضلة بشكل عام ؟!

أربعة وعشرون قرنًا من الزمان مرّت ، دون أن يجيب مخلوق واحد هذا السؤال بشكل قاطع !!

وعلى الرغم من هذا ، فحتى لحظة كتابة هذه السطور ، مازال هناك

باحثين وعلماء آثار مغامرين يبذلون حتى حياتهم نفسها ، فى سبيل العثور على دليل ، يمكن أن يثبت وجود قاعدة (أطلانطس) يومًا ..

أو حتى يؤكّد جزءًا من قصتها ..

أو من أسطورتها ..

وأسطورة (أطلانطس) ، كما جاءت فى المحاورتين ، تبدأ منذ نشأة الحضارة على الأرض ، عندما تم تقسيمها بين الآلهة ، فكانت جزيرة أو قارة (أطلانطس) من نصيب (بوسيدون) إله البحر والزلازل .

وكما عودتنا الأساطير القديمة ، يقع (بوسيدون) فى غرام (كليتو) البشرية ، التى تعيش فى (أطلانطس) ، ويقرر الاستئثار بها ؛ لذا فهو يحيط القارة بعدة حلقات متتالية من الأرض والماء ، فيعزل القارة تمامًا ولكنه يزوّدها فى الوقت ذاته بالغذاء الوفير ، والخير العظيم ، الذى يخرج بوفرة من الأرض ، ويفجر فيها نبعين من الماء ، أحدهما بارد ، والآخر ساخن ..

ووفقًا للأسطورة ، أنجب (بوسيدون) و(كليتو) خمسة أزواج من التوائم الذكور ، تم تقسيم حكم القارة بينهم ، فى (اتحاد ملوك) يرأسه الابن الأكبر (أطلس) والذى سميت القارة باسمه .

وعن لسان (كريتياس) وصف (أفلاطون) معابد وقصورًا عظيمة ، تزخر بها (أطلانطس) ، ومعبد (بوسيدون) المغطى بالذهب الخالص ، والتماثيل الهائلة ، والعمارات المدهشة ..

الوصف جعل (أطلانطس) جنة موعودة على الأرض ، ثم انتهى بدمارها الكامل الشامل ، وغرقها فى أعماق المحيط ، الذى يحمل إلى يومنا هذا اسم المحيط الأطلسى ..

وهكذا تكون الأساطير دومًا .. رائعة .. مدهشة .. خلاَّبة ..

وكان يمكن أن يظل الأمر مجرد أسطورة ، وقصة أنيقة جميلة ، تتوارثها الأجيال ، لولا أن حدث فى العالم فجأة تطور جديد ..

تطوّر خطير ..

للغاية .

★ ★ ★

٢ ـ حقيقة أم خيال ..

● منذ تسعة وعشرين قرنًا من الزمان ، وحوالى عام ٨٥٠ ق.م . ، أى قبل (أفلاطون) بخمسمائة عام ، كتب الشاعر العظيم (هوميروس) ملحمتيه الشهيرتين الخالدتين ، (الإلياذة) و(الأوديسا) ..

وانبهرت الدنيا بما كتبه (هوميروس) ، وانشغل الأدباء عبر العصور بخياله الجامح ، وانهمك الدارسون لقرون وقرون ، فى تحليل أفكاره وعباراته ، وتصوراته البديعة المرهفة ، ويتفاعلون بعقولهم وقلوبهم مع أسطورة المدينة الخيالية (طروادة) ، وذلك النسيج المبدع من الأفكار ، الذى أحاط به (هوميروس) قصة حربها ، بخيال جامح مثير ..

ومع مرور السنوات والقرون ، وقر فى العقول والقلوب والأذهان أن (طروادة) هذه مكان خيالى ، وأن حربها ليست سوى إبداع شاعر عظيم ، و ...

وفجأة ، فى عام ١٨٧١م ، جاء الأثرى الألمانى (هينديش شليمان) ؛ ليهدم كل هذا رأسًا على عقب ، ويباغت العالم كله بحقيقة جديدة ..

حقيقة (طروادة) ..

ففى ذلك العام ، وفى منطقة (هيسارليك) فى شمال غرب (تركيا) وفى نفس الموقع الذى حدَّده (هوميروس) فى ملحمتيه الشهيرتين ، كشف (شليمان) بقايا (طروادة) ..

كان الكل يسخر منه ، عندما راح يبحث عن مدينة خيالية ، حاملاً معوله فى يد ، وملحمة (هوميروس) فى اليد الأخرى ، واتهموه بالحماقة والخبل ، لأنه يبذل كل هذا الجهد ، استنادًا إلى ملحمتين أدبيتين ، وليس إلى مراجع علمية أو تاريخية مؤكدة ..

ولكن (شليمان) فعلها ، وعثر على (طروادة) ، وانتشلها من بين الأنقاض ، ومن تحت الرمال والركام ..

وهنا انخرست كل الألسنة المعارضة والساخرة ..

وتحدثت ألسنة أخرى ..

ألسنة راحت تتساءل : لو أن (طروادة) ، التى تعامل معها الكل باعتبارها خيال محض ، قد برزت من تحت الرمال ، كحقيقة واقعية ، تتحدى كل معارض ، فماذا عن (أطلانطس) ؟!

هل يمكن أن تكون بدورها حقيقة ؟!

هل ؟!

هذا السؤال طرحه جمع هائل من العلماء ، ومن الباحثين والدارسين ، والمهتمين بتاريخ وأسطورة (أطلانطس) ، وعلى رأسهم (إيجناينوس دونيللى) ..

و(دونيللى) هذا شاب نابه ، وُلِدَ فى (فيلادلفيا) الأمريكية ،

عام ١٨٣١م ، وأثبت نشاطًا وذكاءً غير عاديين ، طوال فترات صباه وشبابه ، حتى إنه استطاع أن ينضم إلى رابطة المحامين ، فى الثانية والعشرين من عمره ، وهذا مالم يكن يبلغه المجتهد حينذاك ، قبل الثلاثين على الأقل ..

وفى الثامنة والعشرين من عمره ، وإثر اهتمامه بالسياسة وشئونها ، تم انتخاب (دونيللى) كحاكم لولاية (مينوسيتا) ، وبعدها بأربع سنوات ، أصبح عضوًا فى (الكونجرس) ، الذى قضى فيه دورتين كاملتين ، مدتهما ثمانى سنوات ، اشتهر خلالها بأنه خطيب مفوّه ، ونائب محترم ، ومحاور قادر على جذب انتباه واهتمام وتقدير واحترام كل من يتعامل معه ..

وعلى الرغم من كل هذا ، كان (دونيللى) يعانى من وحدة شديدة ، بعد وفاة زوجته ، وانتقاله إلى (واشنطن) فراح يقضى كل وقته فى القراءة ، ويلتهم كتب مكتبة (الكونجرس) التهامًا ..

ومن بين عشرات الموضوعات ، التى قرأها ودرسها (دونيللى) جذب انتباهه ، وخلب لبه ، وأشعل عقله موضوع واحد ..

(أطلانطس) ..

وبنهم لامثيل له ، راح (دونيللى) يقرأ كل ماكتب عن (أطلانطس) فى عشرات ، بل مئات الكتب ، ثم راح يجرى دراساته الخاصة حولها ، واهتم بشدة بكشف (شليمان) لبقايا (طروادة) ثم جمع كل هذا ، بعد سنوات من العزلة والدراسة ، ليصدر كتابه (أطلانطس وعالم ما قبل الطوفان) فى صيف عام ١٨٨٢م ..

وفور صدوره ؛ ولأنه يحوى خلاصة عمر بأكمله ، حقق هذا الكتاب شهرة واسعة ، ونجاحًا منقطع النظير ، مما شجع (دونيللى) على أن يصدر ، فى العام التالى مباشرة ، كتابه الثانى (راجناروك .. عصر النار والدمار) الذى ناقش وفنّد الكوارث الطبيعية ، التى يمكن أن تكون السبب ، فى دمار وغرق (أطلانطس) ..

وتعدّدت طبعات كتب (دونيللى) ، وأيقظت عشرات التساؤلات فى الرءوس ، وأشعلت عشرات الاستفسارات والاقتراحات ، خاصة وأنه قد ربط مابين حضارات العالمين القديم والجديد ، وأثبت ـ على نحو نظرى ـ أنه كان هناك حتمًا اتصال ما بين (أوروبا) والأمريكتين ، يتم عبر قارة وسيطة ، هى (أطلانطس) ..

وفى نظريته ، افترض (دونيللى) أن (أطلانطس) كانت لها مستعمرات عديدة ، خارج حدودها ، وأن أقدمها هى (مصر) ، التى أكّد أن حضارتها هى صورة طبق الأصل ، من حضارة (أطلانطس) القديمة ..

فقد كان (دونيللى) يتصوّر أن الحضارة المصرية القديمة قد ظهرت فجأة ، وأنها لم تمر بمراحل التطور المعتادة لكل حضارة ، وأن علومها قد نبتت من منبع مجهول ، مما جعله يفترض أن ذلك المنبع هو (أطلانطس) نفسها ..

إذن ، ففى رأيه ، نظريته ، كانت (أطلانطس) هى أم الحضارات ، وزعيمة العالم القديم ـ إن صح القول ـ والأصل الذى انتقلت أفرعه فيما بعد ، إلى كل مكان فى العالم ..

وعلى الرغم من أن أساطير مختلف الشعوب ، تتفق فيما بينها على أن هناك حضارة قديمة فائقة ، تفوّقت يومًا على كل ما حولها ، إلا أن (أفلاطون) نفسه ، فى محاورتيه الشهيرتين ، لم يزعم أن (أطلانطس) هى أصل كل الحضارات ، بل ولم يشر إلى هذا حتى ..

ولذا فقد قوبلت نظرية (دونيللى) بتأييد شديد ، من عدة جهات ، وبهجوم عنيف للغاية من جهات أخرى ..

وكما يحدث لكل مفكّر ، يتجاوز الحدود المعتادة فى عصره ، تحول (دونيللى) إلى قديس فى نظر البعض ، وشيطان فى نظر البعض الآخر ، إلا أن هذا لم يمنع الجانبين من الاعتراف ، بأنه أوّل من وضع قواعد البحث عن قارة (أطلانطس) وأسطورتها المفقودة ، وأوّل من أسس ما يعرف باسم علم (الأطلانطية) (Atlantiology) أو العلم الذى يبحث أسس الحضارة الاطلانطية القديمة ، ودلائل واحتمالات وجودها ، وهو علم معترف به ، فى كافة أنحاء العالم المتحضر ..

وفى الوقت الذى احتدمت فيه المناقشات والمحاورات ، حول (دونيللى) ونظريته ، والذى بدأ فيه بعض الباحثين يعلنون أخطاءها ، ونقاط الضعف والغموض فيها ، وينشرون نظرياتهم المناهضة لها ، والحقائق العلمية المرتبطة بها ، فاجأ الأثرى البريطانى سير (آرثر إيفانز) العالم كله بحقيقة جديدة ، رجته من الأعماق .

فمنذ سنوات طوال ، نقل الأثريون والمؤرخون أسطورة قديمة ، تدور فى جزيرة (كريت) حول حب الملك (مينوس) ابن (زيوس) كبير الآلهة ، من بشرية تدعى (أوروبا) ، وحول إنسان آلى من البرونز ، له جسم آدمى ، ورأس ثور ، كان يجوب شواطئ (كريت) الصخرية ، ليبعد عنها الغزاة ، ويلقى على سفنهم الصخور الهائلة الضخمة ..

وفى الوقت نفسه ، كان هناك وحشًا آخر ، يدعى (المينوتورس) ، له ايضًا جسد إنسان ورأس ثور ، سجنه الملك (مينوس) فى قصر التيه ، أو (اللابيرنث) حيث يتم تقديم سبعة من خيرة شباب (اليونان) وسبع من خيرة بناتها كقربان له كل عام ، حتى جاء الفارس المغوار (ثيسيوس) ، فتحدّاه ، وذبحه ، وحفظ دماء شباب وبنات اليونان ..

أسطورة مبهرة مثيرة ، ككل الأساطير القديمة ، خلبت الألباب ، وحبست الأنفاس ، وشغلت العقول لقرون وقرون ، باعتبارها أيضًا قريحة عقول متفوّقة ، ونتاج خيال جامح ، و ....

وفجأة ، نقل سير (إيفانز) كل هذا فجأة إلى عالم الواقع ..

فى عام ١٩٠٠م ، وبقيادة (إيفانز) ظهرت أطلال وآثار الحضارة المينوية القديمة فى (كريت) ..

ذلك الكشف أثبت أن أهل (كريت) كانو سادة عظام ، وتجارًا ومستعمرين ، أخضعوا جيرانهم ، وحصلوا منهم على الجزية ..

وأثبت أيضًا أن قصة (مينوس) لم تكن مجرد أسطورة ..

لقد كانت حقيقة ..

حقيقة تقلب كل الحسابات رأسًا على عقب ..

وخصوصًا حسابات الباحثين عن (أطلانطس) ..

وقبل أن يلتقط الناس أنفاسهم ، ويستوعبون كشف سير (أرثر إيفانز) المدهش ، كانت فى انتظارهم مفاجأة جديدة ..

مفاجأة مدهشة .

★ ★ ★

٣ ـ حضارة الرمال ..

● فى عام ١٨٦١م ، كشف علماء الآثار أطلال قصر الملك (آشور بانيبال) ، حاكم مملكة (آشور) ، فى القرن السابع قبل الميلاد ، وبين تلك الأطلال ، عثروا على أعظم كشف أثرى وثقافى فى المنطقة .

عثروا على مكتبة كاملة سليمة تحوى آلاف الألواح الطينية ، المكتوبة بأسلوب الكتابة المسمارية القديمة ، والتى تضم ثروة هائلة من المعلومات ، عن مختلف الأمور ، وعلى رأسها قوائم وسجلات كاملة ، لأسماء المدن والأقاليم ، والآلهة التى كانت تعبد أيامها ، هذا إلى جانب مئات القصائد ، وعشرات الأساطير ، والقواميس أيضًا ..

قواميس باللغة الأشورية ، وبلغات اقدم منها ، كالبابلية والسومرية ، وقواميس تضم كلمات أشورية ومعانيها بلغات مختلفة ، بل وطرق نطقها أيضًا ..

خمسة وعشرون ألفًا ، من الألواح المعرفية ، تم نقلها جميعها إلى المتحف البريطانى فى (لندن) ، لوضعها تحت بصر ويد الباحثين ، وعلماء اللغات القديمة ..

ومن بين عشرات العلماء ، الذين انبهروا بهذه الذخيرة الأثرية المدهشة ، والذين قضوا عمرهم كله ، فى دراسة الألواح والوثائق وترجمتها ، كان العالم البريطانى (راولونسون) ، الذى عثر على اسم تردَّد أكثر من مرة فيها ، وهو اسم (ديلمون) ..

لم يكن الاسم جديدًا أو غريبًا ، فقد تم العثور عليه قديمًا ، فى نقش على جدار قصر الملك (سرجون الآشورى) يسجل فتوحات الملك وانتصاراته الحربية ..

وعلى الرغم من أن أحدًا سواه ، لم يتوقف كثيرًا عند اسم (ديلمون) ، فقد انشغل (راولونسون) به كثيرًا ، وراح يجمع المعلومات عن حضارة (ديلمون القديمة) التى وردت فى النقوش القديمة ، التى وردت فى النقوش القديمة ، باعتبارها جنة الله فى الأرض ..

ففى (ديلمون) كما تقول النقوش والأساطير ، كانت الأرض دومًا نظيفة ومشرقة ، وكل شىء جميل وهادئ ، حتى الأسد لايفترس ، والذئب يصادق الحمل ، ولا أحد يمرض ، أو يتألم ، أو يبلغ من العمر عتيًا ..

والحسناء فى (ديلمون) لا تحتاج إلى الاستحمام ؛ لأن كل شىء نظيف طاهر ، والماء متلألئ ، والدموع لاتزور العيون و .. ، و ...

وصف أسطورى ومثالى للغاية ، جعل (ديلمون) تبدو أشبه بأسطورة خيالية ، منها بحقيقة واقعية ، يمكن الاقتناع بها ، أو تصديق وجودها ..

ولكن (راولونسون) نشر أبحاثًا تشير إلى العكس تمامًا ، ووحده ، من دون كافة علماء الآثار ، ظل يؤكّد أن (ديلمون) حقيقة ، بل ورصد طبيعتها ، وآلهتها ، وعلى رأسهم الإله أنزاك) ..

وكالمعتاد ، سخر الكل من أبحاث (راولونسون) ودراساتة ، واتهمه البعض بالإغراق فى الخيال ، والغوص فى عالم الأحلام ..

ثم جاء عام ١٨٨٠م ، ليكتشف الرحالة البريطانى (كابتن ديوراند) حجرًا قديمًا ، فى مسجد فى البحرين ، عليه كتابة مسمارية قديمة ، تمت ترجمتها بمنتهى الدقة ، لتظهر عبارة تقول : « هذا قصر (ريماتوس) خادم الإله (أنزاك) ، من قبيلة عقير » ..

وهنا ، تبدلت كل الآراء ، وبدأ السؤال يطرح نفسه بشدة ..

ما حقيقة (ديلمون) ؟!

أهى حقيقة ، أم مجرّد أسطورة ، وردت فى نقوش قديمة ؟!

وكإجراء طبيعى ، كلفت الجمعية الملكية الأسيوية (راولونسون) بمهمة تحليل تقرير (ديوراند) ، والتعليق عليه .. وفى تقرير ، ربط (راولونسون) مابين (ديلمون) و(البحرين) ، وأكّد أن الأخيرة تنهض على أطلال الأولى ..

وفى عام ١٩٠٠م ، ومن خلال بعثة أثرية أمريكية ، من جامعة (بنسلفانيا) ، عثر (هيلبرخت) رئيس البعثة على خمسة وثلاثين ألف لوح سومرى تحوى طنًا آخر من المعلومات فى (نيبور) وهى منطقة مابين النهرين ، من بينها نص سومرى ، يشير إلى (ديلمون) باعتبارها أرض العبور ، والمكان الذى تشرق منه الشمس ..

ولقد عاصر (إيجنايتوس دونيللى) هذا الكشف العظيم ، وربط آخر مقالاته بين (أطلانطس) و(ديلمون) قبل أن يتوفاه الله ، فى عام ١٩٠١م ، تاركًا الأمر كله لمن بعده ..

أما حضارة (ديلمون) نفسها ، فقد انتظرت حتى الحرب العالمية الثانية ، عندما أتى (د . بيتركورنوال) ؛ لينقب فى تلال المدافن فى (البحرين) ، ويخرج بالأدلة والبراهين القاطعة ، على أن حضارة (ديلمون) لم تكن مجرد أسطورة ، بل هى حقيقة ، أعلنت عن نفسها ، وأبرزت وجودها وآثارها للعالم كله ..

الأساطير إذن ، تتحول ، واحدة بعد الأخرى ، من عالم الخيال ، إلى عالم الواقع والوضوح ..

(طروادة) ..

و(المينوتوروس) ..

و(ديلمون) ..

فماذا إذن عن (أطلانطس) ؟!

ما الذى يمنع كونها أيضًا حقيقة واقعية ، لقارة حكمت الدنيا يومًا ، قبل أن تودى بها كارثة رهيبة ، طبيعية أو صناعية ، فتغرق بكل مافيها ، ومن فيها ، فى أعماق المحيط الأطلنطى ؟!

هذا ما طرحه الميثولجى الأسكتلاندى (لويس سبنس) فى مجلته ، ذات العمر القصير ، والتى حملت اسم الأسطورة نفسها ..

اسم (أطلانطس) ..

وعلى الرغم من أن (سبنس) هذا لم يحظ بالشهرة الشعبية، التى حظى بها نظيرة (دونيللى)، إلا أنه كرّس جهوده للبحث عن القارة المفقودة، ووضع خمسة كتب حولها، كان أشهرها (مشكلة أطلانطس)، الذى نشر عام ١٩٢٤م، والذى فاز (سبنس) بسببه باحترام وترحيب المهتمين بأسطورة (أطلانطس)، حتى إن أحدهم قال عنه: إنه أفضل كتاب نشر عن (أطلانطس) فى التاريخ..

وعلى عكس نقاط نظرية (دونيللى) الحماسية، ناقش (سبنس) نظريته بأسلوب هادئ، وعملى، ودقيق، شأن أى عالم محترم؛ ليخلص منها إلى مجموعة من الحقائق، تتلخص فى أنه كانت هناك بالفعل قارة ضخمة، تحتل معظم منطقة شمال المحيط الأطلنطى، وجزءًا من جنوبه، ولقد ظلت موجودة حتى أواخر العصر الميوسينى، الذى يعود إلى ما يزيد على عشرة ملايين عام، ثم بدأت تندثر، نتيجة لعوامل طبيعية، بركانية وزلزالية متعاقبة، مما أدى إلى ظهور تكتلات جزرية، أهمها (أطلانطس)، بالقرب من مداخل البحر الأبيض المتوسط، وخلف أعمدة (هرقل)، و(أنتيليا)، القريبة من جزر الهند الغربية الحالية، وكانت الاتصالات تتم بينهم، عبر سلسلة من الجزر الصغيرة..

ووفقًا لنظرية (سبنس)، لم تختف (أطلانطس) فى يوم وليلة، كما قال (أفلاطون) ولكنها ظلت قائمة، حتى العصر البليستوسينى،

قبل خمسة وعشرين ألف سنة، تعرّضت لمجموعة من الكوارث الطبيعية المتعاقبة، حتى ما يقرب من عشرة آلاف سنة قبل الميلاد، مما أدّى فى النهاية إلى غرقها نهائيًا، فى حين ظلت (أنتيليا) صامدة لزمن أطول، لتترك خلفها بعض البقايا فى النهاية، وهى جزر (الأنتيل)..

وعلى عكس (دونيللى) قال (سبنس) إن حضارة (أطلانطس) لم تكن متقدمة تمامًا، وإنما كانت حضارة بدائية إلى حد كبير، إنها لم تعرف أبدًا تشكيل أو استخدام المعادن..

ووفقًا لنظريته أيضًا، انتشر سكان (أطلانطس)، بعد غرقها، فى أنحاء العالم القريبة، وكانوا النواة لعدد من الحضارات المعروفة، مثل حضارة (مصر)، و(كريت) والحضارة الأزيلية فى (أوروبا)، والتى ظهرت قبل عشرة آلاف عام قبل الميلاد، وهو نفس التاريخ ـ تقريبًا ـ الذى حدده (أفلاطون) لغرق (أطلانطس) ثم عاد (سبنس) ليؤكد أن حضارت (مصر) و(يوكاتان) و(بيرو) قد ظهرت فجأة، ودون مقدمات، لتنتقل من العصر الحجرى إلى عصر التقدم، دون المرور بمراحل وسيطة، مما يوحى بأنها قد اكتسبت حضارتها من جهات أخرى..

وهنا يقع (سبنس) فى تناقض عجيب، مابين عدم تقدم (أطلانطس)، ونقلها علامات الحضارة إلى الآخرين، ولكنه، على الرغم من هذا، يحظى حتى هذه اللحظة، باحترام وتقدير العديدين، وإن لم يقدّم دليلاً ماديًا واحدًا على كل ما قاله..

ولم يقدم غيره أيضًا هذا الدليل المنشود ..

حتى ظهر (إدجار كايس) ..

ولقد قدَّم (كايس) الدليل بأسلوب مدهش ، لم يتصوَّره أو يتخيله مخلوق واحد ..

أبدًا .

* * *

٤ـ النبـــوءة ..

● مع بداية العقد الثانى ، من القرن العشرين ، تضاعف اهتمام الأمريكيين فجأة بالتنبؤات والمتنبئين ، وعادوا ينبشون المكتبات وكتب التاريخ ، بحثًا عن مشاهير المتنبئين القدامى ، وانتشرت صرعة عجيبة لإثبات صحة تنبؤاتهم الماضية ، وتأكيد حتمية حدوث تنبؤاتهم التالية ..

وفى مناخ كهذا ، من الطبيعى أن ينتشر الدجل والخداع ، وأن يظهر عشرات النصابين ، الذين يدّعون قدرتهم على قراءة الطالع ، وكشف الغيب ، والتنبؤ بالأحداث المستقبلية ، خاصة وأن أحدًا لايمكنه معرفة ما سيحدث فى المستقبل ، مما يجعل الاعتراض على ما يقوله أى نصاب أمرًا عسيرًا للغاية ..

وفى وسط هذا كله ، ظهر (إدجار كايس) ..

كان شابًا هادئًا ، على عكس الآخرين ، لا يميل إلى الاستعراض والتباهى ، ويحمر وجهه خجلاً كالعذراء ، إذا ما وجَّه إليه أحدهم عبارة استحسان ، أو كلمات إعجاب وتقدير ، أو حتى جملة شكر أنيقة ..

وعلى عكس الآخرين أيضًا ، لم يكن (كايس) من ذلك النوع ، الذى يمكن أن تلقى عليه سؤالاً عن أحداث مستقبلية ، فيضع أصابعه على جبهته ، ويدير يده الآخرى فى الهواء ، ثم يخرج الجواب بأسلوب مسرحى مثير ، بل كان يؤكد دومًا أن التنبؤات أو الرؤى ، كما كان يحلو له تسميتها ، تأتيه وقتما تشاء ، وليس عندما يشاء هو ..

ففى لحظات عادية ، كان (كايس) يصاب بشرود مباغت ، وتنقلب عيناه داخل محجريهما ، على نحو عجيب ، ويدخل فيما يشبه الغيبوبة ، وخلالها يلقى نبؤته ، ثم لايذكر الكثير عنها ، عندما يستعيد وعيه بعد قليل ..

ولأن ذلك الزمن كان يميل إلى المسرحية والاستعراض ، تأخر (كايس) عن أقرانه ، ولم يحظ بشهرتهم ، أو تلقى عليه الأموال الوفيرة مثلهم ..

ثم إنه أيضًا لم يسع لهذا أبدًا ..

حتى كانت فترة الثلاثينات ، وما صحبها من اختناق اقتصادى رهيب ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ..

أيامها ، وبينما راح البعض ينبش فى تنبؤات (نوستراداموس) العرّاف الفرنسى الأشهر ، بحثًا عن أية نبؤة ، تتحدث عن انفراج الأزمة ، كشف أحدهم فجأة ، أن كل تنبؤات (إدجاركايس) خلال السنوات العشر الأخيرة ، قد تحققت على نحو مدهش ، وفى نفس التوقيتات التى حدّدها فى نبؤاته ..

وهنا تفجّرت الشهرة فجأة ..

ومن كل صوب ..

واستيقظ (كايس) ذات صباح ، ليجد الصحفيين يحيطون بمنزله ، ومصابيح تصويرهم تسطع فى وجهه ، وعشرات الأسئلة تنهال على أذنيه ..

وفى اليوم التالى ، كان (كايس) ضيفًا على خمس شبكات إذاعية ، وصوره تملأ الصفحات الأولى ، فى خمس وسبعين صحيفة ، محلية وعامة ..

وخلال أسبوع واحد ، أصبح (إدجار كايس) أشهر عرّاف ، ليس فى (أمريكا) وحدها ، ولكن فى العالم أجمع ..

ولسنا هنا بصدد سرد تنبؤات (كايس) ، أو التحمّس لها ، أو حتى مناقشة صحتها من عدمها ، ولكننا سنتوقف فقط عند نبوّة واحدة ، ترتبط ارتباطًا وثيقًا مباشرًا ، بالأسطورة التى نتحدث عنها ..

أسطورة (أطلانطس) ..

ففى يونيو عام ١٩٤٠م ، وفى أثناء واحدة من نوبات غيابه عن الوعى ، الذى جعلته يوصف بأنه وسيط روحانى قوى ، أعلن (كايس) أن (أطلانطس) حقيقة ، وأن أجزاء منها سوف تبرز من قلب المحيط الأطلنطى ، فى عام ١٩٦٨م ، أو ١٩٦٩م ، وحدّد تلك الأجزاء بأنها من الطرف الغربى للقارة الأسطورية ، والمسمى (بوسيديا) ، وأنها ستظهر بالقرب من جزر (البهاما) ..

وأدهشت النبوءة العديدين ، حتى أولئك الذين يؤمنون تمامًا بموهبة (كايس) ، إذ لم تكن الظروف تحتمل الحديث عن أمر كهذا ، والكل كان يتوقّع منه نبوءة حول نهاية الحرب العالمية الثانية ، التى بلغت أوجها حينذاك ، والتى كادت تلتهم العالم كله ..

الكل كان ينتظر حديثًا عن (ألمانيا) النازية ، أو (هتلر) أو حتى عن سقوط (إنجلترا) فإذا به يتحدث عن (أطلانطس) وظهورها المنتظر ، بعدما يزيد عن ربع قرن قادم من الزمان ..

وتجاهل معظم الناس نبوءة (كايس) حول (أطلانطس) ، وألقوها خلف ظهورهم ، وخصوصًا مع تنبؤاته التالية ، التى أشارت إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية سترغم على دخول الحرب ، وأن (روسيا) ستسقط جزئيا فى قبضة النازيين ، قبل أن تنهض لتهزمهم شرهزيمة فيما بعد ..

حتى المهتمين بعلوم قارة (أطلانطس) لم يتوقفوا كثيرًا أمام نبوءة (كايس) ، باعتبارها عن مستقبليات ، لاسبيل إلى التأكد منها فى زمنهم ، أو حتى إيجاد المنطق العلمى لحدوثها بعد ..

ومرت السنوات ، وتحققت نبوءات (كايس) الخاصة بالحرب ، ودخلت (أمريكا) الحرب العالمية الثانية مرغمة ، بعد أن قصف اليابانيون ميناء (بيرل هاربور) واجتاح النازيون (روسيا) ، ثم اندحروا على أبواب (موسكو) وراحوا يتراجعون ، وسط البرد والجليد ، ليلقوا هزيمة ساحقة فيما بعد ، دفعت (هتلر) نفسه إلى الانتحار ..

ووسط هذا الخضم من الأحداث ، نسى الكل نبوءة (كايس) ، الخاصة بقارة (أطلانطس) ..

نسوها تمامًا ..

ولكن عام ١٩٦٨م جاء ، وظهرت معه تلك البقايا ، التى برزت من قلب المحيط ، بالقرب من جزر (البهاما) ..

تمامًا فى نفس الزمان والمكان ، اللذين حددهما (كايس) فى نبوءته القديمة ، منذ ما يزيد عن ربع القرن ..

ونستطيع أن نؤكد ، دون ذرة واحدة من المبالغة ، أن الخبر قد حبس أنفاس جميع الأمريكيين ، والكاميرات تنقل صورة الأبنية الحجرية ، والأطلال القديمة ، التى ظهرت بالقرب من سطح الماء ، عند شاطئ جزيرة (بايمين) ، إحدى جزر (البهاما) ، وتسترجع مع المشاهدين نبوءة (كايس) القديمة ، ثم تضيف إلى هذا آراء الخبراء وعلماء الآثار ، الذين أكدوا أن طرز تلك المبانى ، لاتشبه أية طرز حضارية قديمة معروفة ..

وكان هذا يعنى أمرًا واحدًا لاغير ..

أن هذه بالفعل أطلال (أطلانطس) القديمة ..

وأن (أطلانطس) حقيقة ..

ومن سوء الحظ أن تلك الأطلال لم تبق فى موضعها طويلاً ، إذا سرعان ما غاصت مرة أخرى فى أعماق المحيط ، وعلى مسافات لم يكن من الممكن أن يبلغها البشر أبدًا ..

فقط بقيت الصور ، وتعليقات الخبراء ، ونبوءة (كايس) القديمة ، وخيال وعقول الملايين ..

ولأن الوقت لم يسمح للعماء والدارسين والباحثين بالتيقن من الأمر ، والحصول على أدلة مادية ، فقد بدءوا يختلفون حول الأمر ، بعد أسبوع واحد من غوص الأطلال ، عائدة إلى أعمق الأعماق ..

البعض استنكر الأمر كله ، وأصرّ على أنها مجرّد مصادفة ، قد يبلغ احتمالها الواحد فى كل ستة ملايين ، ولكنه احتمال وارد وقائم ، وبخاصة مع غياب أى دليل مادى آخر ..

أما البعض الآخر فقد اقتنع تمامًا بما حدث ، واعتبر أن هذا أقوى دليل على وجود (أطلانطس) فى تاريخ الأسطورة كلها ..

وبين أولئك وهؤلاء ، وقف (تشارلز بيرلتز) ..

و (بيرلتز) هذا بدأ حياته العملية كمترجم ، ثم لم يلبث أن اهتم بالظواهر الغريبة ، والأمور غير المحسومة ، فى عالمنا الضخم ، وشغف كثيرًا بتعقُّب كل أمر غامض ، والسعى خلف كل لغز عميق ، بحثًا عما يؤيده أو ينفيه ..

ومن هذا المنطلق ، ولأن كتابه عن (مثلث برمودا) قد حقّق نجاحًا مدهشًا ، ومبيعات لم يحلم بها كاتب مثله ، قرّر (بيرلتز) ، الذى هو فى الوقت ذاته غوّاص ماهر بارع ، أن يغوص بنفسه ،

مع فريق من المعاونين ، فى منطقة جزر (البهاما) ، بحثًا عن أى دليل مادى ، على وجود (أطلانطس) ..

ولقد رفض العلماء التعليق على محاولة (بيرلتز) ، وتأييدها أو استنكارها ، واكتفوا بالصمت ، وبهز الأكتاف فى استهتار ، وكأنهم خشوا اتخاذ موقف واضح ، تثبت تطورات الأحداث عكسه ، فتهتز صورتهم فى عيون الآخرين ، وتضيع هيبتهم ومصداقيتهم ، كعلماء لهم وزنهم فى مجالاتهم ..

وغاص (بيرلتز) وفريقه ..

غاص فى منطقة جزر (البهاما) ، وحولها ، و ..

وكانت فى انتظارهم مفاجأة مذهلة ..

مفاجأة لايمكن أن تخطر على عقل مخلوق ..

أى مخلوق ..

* * *

٥ ـ أطلال من الماضى ..

●عندما غاص الكاتب والباحث الشهير (تشارلز بيرلتز) ، مع زميله خبير الغوص (د . ماتسوت فالنتين) ، فى أعماق المحيط الأطلنطى ، بالقرب من جزر (البهاما) وحولها ، كانت غاية طموحاتهما أن يجدا بعض الصخور ، ذات التركيبات المنتظمة ، التى توحى بأنها من صنع الإنسان ، أو حتى تمثالاً صغيرًا ، يؤكد الخبراء أنه لا ينتمى إلى حضارة قديمة معروفة !!

ولكن كانت فى انتظارهم مفاجأة !

بل مفاجآت !

ففى كتابه ، الذى حطم الأرقام القياسية للمبيعات ، والذى حمل اسم (سر أطلانطس) ، ذكر (بيرلتز) كيف أنه وفريقه قد عثروا على الكثير من الأطلال القديمة الغارقة ، بالقرب من جزر الكاريبى ، وعلى مابيدو أشبه بمدينة كبيرة ، تستقر فى قاع المحيط ، عند جزيرة (هابيتى) ثم كانت لحظة المجد ،عندما عثروا على طريق (بايمين) ..

وطريق (بايمين) هذا عبارة عن طريق مرصوف بالأحجار ، شمال جزيرة (بايمين) ، بدا موحيًا بأن هذه المنطقة كانت يومًا ما فوق سطح الماء ، قبل أن تغرق ، وتختفى فى أعماق المحيط ..

وبالقرب من ذلك الطريق ، رصد (بيرلتز) وفريقه مابدا أشبه بجدران ضخمة ، وأقواس نصر كبيرة ، وأهرامات ، وقواعد وأطلال قديمة ، فى حين رصد بعض الطيارين ، الذين ساهموا فى حملة البحث ، على مسافة عشرة أميال من جزيرة (أندراوس) ، دائرة ضخمة من الصخور ، بدت أشبه بقواعد أساس لبناء هائل ..

ونشر (بيرلتز) كل هذا فى كتابه ، وأيّده بالصور والوثائق ، وشهادة الشهود ، وأهمهم خبير الغوص (فالنتين) نفسه ..

وقامت الدنيا ولم تقعد ..

فالعلماء والخبراء ، الذين لم يغادر أحدهم مكتبه ، أو يبذل ربع الجهد ، الذى بذله (بيرلتز) وفريقه ، استنكروا تمامًا ما جاء فى كتاب هذا الأخير ، وقالوا : إن طريق (بايمين) هذا مجرّد مجموعة من الصخور ، تصادف أن تراصت على نحو منتظم ، فى أعماق المحيط !!

وهنا ، نشر (بيرلتز) و (فالنتين) مقالاً مشتركًا ، سخرا فيه من فكرة ونظرية المصادفة هذه ، وقالا ما معناه : إنها حجة الفاشلين ؛ لأن الطبيعة لن تشكل الصخور على هيئة مكعبات ضخمة منتظمة الزوايا القائمة تمامًا ، وتفصلها فجوات متناسقة بشدة ، وتقطعها طرق أخرى على مسافات دقيقة متساوية ..

والأهم والأخطر ، أن الطبيعة لن تصنع قاعدة عمودية صخرية ، أسفل كل مكعب ، على هذا النسق المعمارى الدقيق ..

ولم يكتف (بيرلتز) و(فالنتين) بالمقال ، وإنما قاما بتصوير فيلم سينمائى للطريق الصخرى ، تم عرضه فى كل محطات التليفزيون الأمريكية تقريبًا ..

وفى نفس الوقت ، تم العثور على طريق آخر ، بوساطة فريق آخر ، بالقرب من شواطئ جزيرتى (يوكاتان) و(هندوراس) ..

طريق أكثر رحابة وضخامة ، ويمتد إلى داخل المحيط ، وكأنما يقود إلى شىء ما ، أو مكان ما ، كان هناك ذات يوم ، منذ قديم الزمن ..

وبالقرب من (فنزويلا) ، عثر فريق ثالث فى أعماق المحيط ، على سور طويل ، يبلغ امتداده مائة ميل !

ولكن يبدو أن عناد العلماء لاحدود له ، وأنهم ، فى تلك المرحلة على الأقل ، كانوا يرفضون تمامًا الاعتراف بما كشفه غير المتخصصين ، أو من لا يحملون شهادات علمية متقدمة ، مهما بلغ وضوحه وقوته ..

فالجيولوجيون اعترضوا على ذلك السور الطويل ، من منطلق أنه من المستحيل أن يبلغ سور من صنع البشر هذا الطول ..

وجاء الرد مرة أخرى ، على شكل فيلم سينمائى ، يرصد السور ، مع عبارة ساخرة ، تطالب الجيولوجيين بتفسير وجود (سور الصين العظيم) ، الذى يمتد لعدة آلاف من الكيلومترات ، مادام البشر ، من وجهة نظرهم ، لا يمكنهم بناء سور طويل !!

وفى هذه المرة سكت الجيولوجيون ..

وسكت العلماء كلهم ..

ولكنهم لم يعترفوا بما تم العثور عليه ..

أبدًا ..

وعلى الرغم من كل هذا ، فقد تواصلت الكشوف ، التى اتخذت من نبوءة (كايس) طرف خيط لها ..

تواصلت من كل الاتجاهات ..

ففى قاع المحيط ، شمال (كوبا) ، رصد الروس أطلالاً ضخمة ، تمتدّ على مساحة عشرة أفدنة كاملة ..

وفى الرصيف القارى لشمال (بورتريكو) ، كشفت ماسحة المحيطات الفرنسية (أرشميدس) درجات سلم منحوتة ، بمنتهى الدقة والانتظام .. وكل هذه الكشوف لم تقنع العلماء ..

كلها لم تكفهم ؛ ليعترفوا ـ رسميًا ـ بأن (أطلانطس) حقيقة ، وليست أسطورة ..

العجيب أنهم لم يفعلوا ..

ولكن الأعجب أنهم ، على الرغم من تجاهلهم لكل هذا ، لم يتوقّفوا قط عن البحث عن (أطلانطس) ، ووضع النظريات عنها ..

ولكن أبحاثهم اتخذت اتجاهًا جديدًا هذا المرة ..

لقد تركوا المحيط الأطلنطى ، وأعمدة (هرقل) ، وكل الدلالات التى جاءت فى محاورتى (أفلاطون) ، وبدءوا فى وضع نظريات أخرى ..

بل وفى وضع (أطلانطس) نفسها ، فى أماكن أخرى ، وغريبة .. ومختلفة تمامًا ..

فالبعض قال إن حضارة (كريت) ، عرفت باسم الحضارة المينوية ، نسبة إلى ملكها (ميينوس) ، هى فى واقعها حضارة (أطلانطس) ، التى ذكرها (كريتياس) ، فى محاورته الشهيرة ..

ولكن (كريت) لم تكن أبدًا قارة ضخمة ، كما أنها ليست خلف أعمدة (هرقل) أو مضيق جبل (طارق) حاليًا ..

صحيح أن ما عثر عليه فيها ، يشبه إلى حد كبير ماراواه (أفلاطون) عن (أطلانطس) ، وبالذات فى الجزء الخاص بمطاردة الثيران ، للإمساك بها دون استخدام أية أسلحة ، إلا أنه من العسير الاقتناع بأن تلك المنطقة الصغيرة ، كانت متقدمة إلى هذا الحد ..

ثم لماذا لا تكون حضارة (كريت) قد التقطت بعض ما جاء به الناجون ، من بقايا حضارة (أطلانطس) ، ومنها العادات والتقاليد ، وفكرة مطاردة الثيران بلا أسلحة أيضًا ؟!

ثم إن (كريت) لم تغرق أبدًا ، وظلت موجودة ، فى زمن (أفلاطون) ، وفيما قبله وبعده ، ولو أنها المكان الذى يقصده ، لأشار إليها مباشرة ، دون الحاجة إلى وضعنا فى هذه الحيرة ..

وفى زمن كهنة الفراعنة ، الذين رووا القصة للمشرّع الأثينى العظيم (صولون) ، كانت كريت أيضًا موجودة وكان يمكن أن يذكروها ، دون حاجة إلى المواربة .

النظرية مردود عليها إذن ، واضحة وضوح الشمس ، ولاتحتاج إلى الكثير من الجهد ، لدحضها وتفنيدها ..

ولكن هناك نظرية أخرى أكثر غرابة ..

نظرية تقول : إن (أطلانطس) لم تغرق فى أعماق المحيط الأطلنطى قط ..

بل ولم تغرق فى أى محيط آخر ..

أو أى بحر آخر ..

لقد غرقت فى قلب الرمال ..

نعم .. تقول النظرية الأخرى أن (أطلانطس) قد غرقت وسط رمال الصحراء الكبرى ، التى تمتد غرب (ليبيا) وشرق (الجزائر) ، وأن مصطلح الغرق هذا يعنى أنها قد دفنت تحت أطنان وأطنان من الرمال ، على مدى الزمن !!

ومن وجهة نظرى الشخصية ، كان ينبغى أن أضع ألف علامة تعجُّب ، بعد السطور السابقة ، فالغرق فى الرمال يختلف تمام الاختلاف ، عن الغرق فى قلب المحيط ، وعبقرى مثل (أفلاطون) ، لم يكن ليضعنا أمام خطأ لغوى رهيب كهذا ..

وحتى كهنة المصريين أنفسهم ، ما كانوا ليقعوا فى هذا الخطأ قط ..

ولكن العجيب أن أصحاب نظرية الغرق فى الرمال كانت لديهم نقطة قوية ، يمكن أن تؤيد نظريتهم ..

نقطة تكمن فى نهاية الصحراء المشار إليها ..

وبالتحديد فى كهف من الكهوف ..

كهف عجيب ..

جدًا..

* * *

٦ ـ بلا أثر ..

● فى جنوب شرق الجمهورية الجزائرية ، تنتشر مجموعة من الكهوف ، فى مرتفعات (تاسيلى) ، وتستقر هناك ، منذ آلاف السنين ..

وفى عام ١٩٣٨م ، وفى أثناء رحلة استكشافية ، يقودها الرحّالة الشهير (برنبان) ، تم اقتحام تلك الكهوف ، ربما لأول مرة ، ليجد أمامه ، هو وفريقه ، مفاجأة مذهلة ..

فعلى جدران أول كهف اقتحموه ، كانت هناك نقوشًا ورسومًا عجيبة لمخلوقات بشرية (أوشبه بشرية) تطير فى السماء ، وترتدى أجهزة طيران مثيرة للغاية ، ونقوش أخرى لسفن فضاء ، أو لما بدا وكأنه سفن فضاء ، وهناك رسوم لرجال ونساء ، يرتدون الثياب الحديثة ، ويحملون المظلات ، ورسوم أخرى لضفادع بشرية ، تحت سطح الماء ، فى أزياء فضائية ..

واتسعت عيون الكل فى ذهول مبهور ، و(فركوها) مرة .. ومرة ، ومرات ، قبل أن يتأكدوا من أن ما يرونه حقيقى ، ثم اكتفوا بعدها برصد الأمر ، ونقل النقوش والرسوم إلى أوراقهم ، دون أن يدلو بدلوهم فى شأنها ، باعتبار أنهم مجرد رحالة ، وليسوا من علماء الآثار أو الجيولوجيا ..

وعلى الرغم من ان (برنبان) قد نشر مقالاً عن كشفه هذا ، فى

واحدة من المجلات العلمية والكشفية الشهيرة إلا أن أحدًا لم يوله الاهتمام الكافى ، أو يعتبر الأمر خارقًا للمعتاد ..

بل لقد بلغ الأمر بالبعض أن تصوروا أن ما عثر علية (برنبان) مجرّد نقوش ورسوم حديثة ، لأصابع صبيانية عابثة ، فى أثناء رحلة كشفية ، أو حتى رحلة لهو معتادة ..

ثم جاء الرحالة (هنرى لوت) ، عام ١٩٥٦ ، وجذبته كهوف (تاسيلى) إليها ، فزارها حاملاً معدات التصوير ، التى التقط بها مئات ومئات الصور لكل النقوش والرسوم ..

وعندما طالع الخبراء تلك الصور ، شاب شعر رءوسهم ، من فرط الرهبة والانبهار ..

فالتقدير الأوّلى ، لعمر تلك الرسوم ، بناءً على الصور ، كان ما يقرب من عشرة آلاف سنة !!

واندفع العلماء والباحثون إلى كهوف (تاسيلى) ، وقد جرفهم الحماس جرفًا ، وراحوا يفحصون النقوش والرسوم عن قرب ، ويجرون عليها اختباراتهم العلمية ، والكربونية ، و ...

وجاءت النتائج مذهلة ..

فالاختبارات كلها قد أجمعت ، على أن العمر الفعلى لتلك النقوش ، هو سبعة عشر ألف عام ..

مائة وسبعون قرنًا من الزمان ، حملت إلينا نقوشًا ، تناسب ، أو ربما تفوق العصر ، الذى تم كشفها فيه !

ويا له من لغز !

لغز عجيب ، رهيب ، حمل لسنوات وسنوات اسم (لغز كهوف تاسيلى) ، حتى ظهرت تلك النظرية ، التى تقول : إن (أطلانطس) كانت تستقر فى ذلك المكان ، وغرقت فى رمال الصحراء ..

عندئذ فقط ، اتخذ لغز كهوف (تاسيلى) أبعادًا جديدة ..

فمن وجهة نظر المؤيدين للنظرية ، كان أصحاب تلك النقوش هم الذين نجوا من دمار (أطلانطس) ، والذين لم يجدوا أمامهم ، بعد فناء حضارتهم ، سوى أن يتركوا لنا نقوشًا غائرة ، لا يمحوها الزمن ، ليخبرونا بقصتهم ..

وليحذرونا منها أيضًا ..

فمع ربط (أطلانطس) بتلك النقوش القديمة ، و(المتقدّمة جدًا) ، تطوّرت قصة دمار (أطلانطس) ، فى النظريات المستحدثة ، وارتبطت بالتأثيرات التى شهدها العالم ، منذ سنوات قليلة ـ آنذاك ـ لتصبح لدينة قصة جديدة تمامًا ..

ونظرية مختلفة تمام الاختلاف ..

فما دام سكان (أطلانطس) كانوا متقدمين إلى هذه الدرجة ، كما تقول نقوش كهوف (تاسيلى) فهذا يعنى أن فناء قارتهم لم يكن

بسبب سلسلة من الكوارث الطبيعية المتتالية ، كما قال (لويس سبنس) ، مؤيدًا (إيجنا تيوس دونيللى) ، وإنما كان كما وصفه (أفلاطون) تمامًا ، فى محاورتيه الشهيرتين ..

لقد فنت (أطلانطس) فى يوم وليلة ..

فنت بواسطة انفجار ذرى رهيب ، أو طاقة أخرى أكثر قوة ، لم نتوصل إليها فى حضارتنا بعد !!

ويا لها من نظرية !

لقد قلبت الأمور كلها رأسًا على عقب ، ومزجت كل شىء ببعضه وخرجت إلينا بنتيجة عجيبة ، شديدة التوتر والتعقيد ، إلى أقصى حد ..

ولكن كيف يمكن أن نؤيد (أفلاطون) فى جزء من قصته ، ثم نخالفه ، وبمنتهى الشدة ، فى أجزاء أخرى منها ؟!

فقصة (أطلانطس) تبدأ مع حصول (بوسيدون) ، إله البحر والزلازل ، على قارة (أطلانطس) ، عندما تم توزيع الأرض على الآلهة ..

كيف يمكن إذن أن يمنح مفكر كبير مثل (أفلاطون) ، قطعة من الصحراء ، بين (ليبيا) و(الجزائر) ، لإله البحر ؟!

كيف يمكن أن يبدو له هذا منطقيًا ، بأى حال من الأحوال ؟!

كيف ؟!

من الواضح جدًا أن (أفلاطون) لم يكن يقصد الصحراء ، من قريب أو بعيد ، عندما ذكر قصة (أطلانطس) ..

ولكن ربما اختلط الأمر على (كريتياس) نفسه ، الذى انتقلت إليه القصة عبر جيلين من البشر ، بدءًا من جده (صولون) ، الذى نقلها على لسان كهنة قدماء المصريين ، والذين تناقلوها بدورهم ، عبر عدة آلاف من السنين ..

كانت هناك إذن ألف فرصة وفرصة ، لتتحوَّر الأمور ، وتتغيَّر ، وتتبدَّل ، لتصبح الصحراء محيطًا ، من رواية إلى أخرى ،عبر قرون وقرون وقرون ..

هذا ما يؤكده مؤيدو نظرية الصحراء ..

وما يسخر منه مؤيدو نظرية الغرق فى المحيط الأطلنطى ، وعلى رأسهم (تشارلز بيرلتنز) ، الذى تساءل ، فى شىء من السخرية ، امتزج ببعض الغضب والحدة : « لو أن (أطلانطس) ظهرت واندثرت فى قلب صحراء (إفريقيا) ، فما الذى عثر عليه هو وفريقه ، فى أعماق المحيط الأطلنطى ؟! »

كل جانب أصبحت له حججه القوية ، ودلائله المتينة ، واعتراضاته الحارة الحاسمة ، دون أن يتفوق الجانبان ، أو حتى يتقاربا ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

وبقيت الأسطورة ..

بقيت (أطلانطس) ..

بقيت كأكبر لغز حضارى ، واجـه العلمـاء فـى عصر بلغت فيه التكنولوجيا أوجها ، وبلغت فيه تقنية البحث حدًا لم تبلغه قط ، أو حتى تقترب منه ، عبر التاريخ كله ..

التاريخ الذى نعرفه بالطبع ..

الشيء الجيّد هو أن محاولات البحث عن أدلة وجود (أطلانطس) لم تتوقف لحظة واحدة ، ولن تفتقر قط إلى التمويل الكافى ، والحماس اللازم ، أو التقنية المتاحة ..

فالآن ، ومع بدايات القرن الحادى والعشرين تجوب أعماق المحيط الأطلنطى غواصات تجريبية نووية ، يمكنها أن تصل إلى أعماق ، لم يبلغها بشر من قبل ، ولم يكن من الممكن أن تحتملها أية مركبة فى الماضى ..

وهناك وسائل فحص الأعماق ، وأعمق الأعماق ، بالأشعة السينية ، وموجات السونار المتفوقة ، والأشعة دون الحمراء ، وحتى بالأشعة الكونية ، التى تسقط على أرضنا فى الفضاء ..

وقديمًا ، كان العثور على السفينة الغارقة (تايتانيك) يعدّ دربًا من الخيال المستحيل ، إلا أن المكتشفين قد نجحوا فى العثور عليها ، وفى استخراج الثروات التى كانت تحملها أيضًا ..

فهل يمكن أن يحدث هذا مع (أطلانطس) أيضًا ؟!

هل يمكن أن يأتى يوم ، ينتشل فيه العلماء أنقاضها من قاع المحيط ، أو ينتشلونها من بين الرمال ، كما فعلوا من قبل ، مع (طروادة)

و(قصر التيه) و(ديلمون) وغيرهم . لو حدث هذا ستكون لحظة تاريخية بحق ، ونقطة تحوّل هائلة ، فى تاريخ العالم كله ..

ففى لحظة العثور عليها ، ستنتقل (أطلانطس) من عالم الغموض والخيال إلى عالم الواقع والحقيقة ، وستنمحى تمامًا تلك الأسطورة الرائعة ، التى ألهبت العقول ، وخلبت الألباب ، وأرجفت القلوب ، لعدة قرون من الزمان ..

أسطورة القارة المفقودة ..

(أطلانطس) ..

* * *

فى سبيل الحرية

(خواطر)

الحرية ..

أجمل كلمة فى الوجود ، بعد كلمات اللّه (سبحانه وتعالى) ..

أجمل معنى ، يمكن أن يفكّر فيه الذهن ، ويعتمل معه العقل ، وينمو معه الكيان والوجدان ..

كلمة يسعى كل مخلوق فى الوجود للحفاظ عليها ، والكفاح من أجلها ، والصراع فى سبيلها ..

الحشرة ترفرف بجناحيها ، أو تنطلق بسيقانها الواهية ، فى محاولة الفرار من أية محاولة لاحتجازها ..

الحيوان يتحوّل إلى كائن شرس عنيف ، لو حاولت إدخاله القفص ..

وبعض أنواع الحيوانات الراقية لا تتناسل أو تتكاثر أبدًا فى الأسر ..

كل مخلوق يقاتل من أجل حريته ..

وعلى رأس كل المخلوقات ، ذلك الكائن ، الذى كرّمه اللّه (سبحانه وتعالى) ، ومنحه الريادة والسيادة فى أرضه ..

الإنسان ..

ومنذ الأزل ، يقاتل الإنسان دومًا ، فى سبيل حريته ..

وكرامته ..

وأمنه ..

ولكن العجيب ، كل العجب ، هو أن إنسان العصور الحديثة ، على الرغم من كل تشدقه بالحرية ، مازال يجهل مفهومها ، وحقيقتها ، و ... وحدودها ..

فالحرية المطلقة أمر مستحيل الوجود ، ما دام فى الكون عقول تختلف ، وتتوافق وتتنافر ، وتتآزر وتتصارع ..

فالحرية ، حريتك ، أشبه بمساحة تمتلكها من الأرض ..

مساحة يحق لك أن تتجوّل فيها كما تشاء ، وأن تفعل فيها كل ما يروق لك ..

ولكن بشرط واحد ،

ألا تتجاوز أسوار مساحتك ..

بمعنى أدق ، وأكثر انتشارًا وشمولاً ، أن حريتك تبدأ من أرضك ، وتنتهى عند حدود الآخرين ..

والمؤمن بالحرية ، والمدرك لطبيعتها الحقيقية ، لا يقاتل فى سبيل حريته فحسب ، وإنما يقاتل بقوة أكبر فى سبيل أن يحصل معارضه أيضًا على حريته ..

حريته فى أن ينتقده ..

ويعارضه ..

ويختلف معه بشدة ..

أيًا كان موضوع الخلاف والاختلاف .

فهذه هى الحرية ..

الحرية الحقيقية ..

فالحرية لا يمكن أن تقتصر على أفراد من دون غيرهم ، أو جهات دون أخرى ، أو حتى عقيدة دون باقى العقائد ..

الحرية إطار واحد ، إما أن يشمل الجميع ، أو لا يشمل أحدًا على الإطلاق ..

مبدأ واحد ، إما أن تؤمن به ، سواء أكان فى صالحك أو ضدك ، أو لا تقبل به على الإطلاق ..

لا حلول وسط ..

ولا أطراف غير واضحة ..

الحرية حرية الجميع بلا استثناء ، أو هى ليست بالحرية على الإطلاق ..

ومشكلة الحرية تبدأ ، عندما يتصوَّر البعض أنهم أفضل من الآخرين ، أو أكثر علمًا وخبرة وذكاءً .. أو حتى أكثر تقدُّمًا ..

عندئذ ، يخيَّل إليهم أن من حقهم أن يسيطروا على حرية الآخرين ..

وأن يقهروها ..

ويسحقوها سحقًا ..

بل والأسوأ أنهم يرون فى هذا حفاظًا على الحرية !

ويا له من منطق مختل مغرور !!

كيف يمكنك أن تسلب حرية الآخرين ، فى سبيل الحرية ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

المؤسف أنك لو ناقشت الأمر مع شخص ما ، ستجد أنه يعلن على الفور إيمانه بالحرية ، ثم يضع بعدها ألف شرط وشرط لهذه الحرية ، التى لا يراها إلا من وجهة نظره فسحب ..

فهو يوافق على الحرية ، على ألا تمتد إليه بالنقد أو المعارضة ، أو تتجاوز إرادته ، أو قواعده ، أو تمس عقيدته ، من قريب أو بعيد ..

الحرية إذن فى نظر معظم الناس ، هى حرية أن تنتقد الآخرين ، أو تعارض الآخرين ، أو حتى تسبهم ..

المهم ألا تقترب منهم هم ..

ولو حاولت تطبيق هذه القاعدة ، ستجد أنه لا توجد حرية على

الإطلاق ، إذ إنه من المستحيل أن تمتلك حريتك ، وكل ما يحيط بك يكبل يديك ، ويعقد لسانك ، ويغمض عينيك ، ويكتم أذنيك أيضًا ..

الحدود الوحيدة ، التى تواجه الحرية ، هى حدود حرية الآخرين ..

وهذا أعظم مفهوم للحرية ..

فمن حقنا أن نختلف ، ونتعارض ، فى الفكر ، والسياسة ، وحتى فى الدين نفسه .

ولكن ليس من حق أحدنا أن يقهر حرية الآخر ، فى التعبير عن نفسه ، لمجرد أنه يخالفه الرأى ..

ومفهوم الحرية ، مع اتساعة ، يمتد ليشمل عدة مفاهيم فرعية أخرى ، منها حق الإنسان فى خصوصيته ، ووضع حدوده ، والتعامل مع الآخرين ، ومع المجتمع .. إلخ ..

والخصوصية ، التى هى جزء من الحرية ، أمر أقاتل للحفاظ عليه طوال عمرى ، خاصة وأننى قد نشأت فى عائلة تحترم الخصوصية إلى حد لم أدرك روعته ، إلا عندما اختلطت بالمجتمع فيما بعد ..

فمنزلنا لم يكن كبيرًا ، ولم يكن صغيرًا أيضًا ، ولكننى قضيت فيه أسعد أيام حياتى ، مع والدى ووالدتى ، وشقيقاتى الثلاث ..

وعلى الرغم من أننا ، شقيقاتى وأنا ، كنا نتشارك حجرة واحدة ، لسنوات طوال وأن كل منا كانت له مساحة محدودة ، يحتفظ فيها بأشيائه الخاصة ، إلا أننى لا أذكر قط ، أن أحدنا قد حاول الاطلاع على خصوصيات الآخرين ، ولو مرة واحدة ..

ولم تكن لأدراجنا أو مكتباتنا مفاتيح أو أقفال ..

المبادئ التى تربينا عليها وحدها ، كانت تمنعنا من اقتحام حرية أو خصوصية بعضنا ..

حتى خطاباتنا ، لم يكن أبى (رحمه الله) أو أمى ، يحاولان فتحها أو قراءتها ، ولم يحاولا الاستعانة بأية حجج جاهزة ، مثل الحفاظ على الأولاد ، ومراقبة علاقاتهم خارج المنزل وغيرها ..

كان هناك احترام شديد للحرية والخصوصية ..

لذا ، فقد أصبحت هذه عقيدة رئيسية فى حياتى ..

الحرية ..

والخصوصية ..

وطوال عمرى ، وحتى لحظة كتابة هذه السطور ، كنت أحترم دومًا خصوصية الآخرين ، وأحرص عليها ، ربما بأكثر مما أحرص على خصوصياتى أنا ..

ولكن العكس لم يكن صحيحًا للأسف ..

فطوال الوقت ، كان معظم من أعرفهم يدسون أنوفهم فى شئونى ، ويقتحمون خصوصياتى ، ويحاولون فرض وجودهم على أمور غاية فى الشخصية ، دون أى مبرّر منطقى ..

بل ودون أن يملك أحدهم أدنى حق فى هذا ..

وطوال الوقت ، كنت أتشبّث بحريتى وخصوصيتى ، وأقاتل من أجل الحفاظ عليهما ، مهما كلفنى هذا من أمر ..

والواقع أنه كلفنى الكثير ..

والكثير جدًا..

جدًا..

فالناس يسعدهم جدًا أن تحترم خصوصياتهم ، وحريتهم ، وأن تعطى كل ذى حق منهم حقه ..

ولكن عندما يأتى دور حقك أنت ، فالأمر يختلف ..

البعض يغضب ..

والبعض يثور ..

والبعض يقاطعك تمامًا ..

كل هذا ، لأنك طالبت بحريتك ، وخصوصيتك ..

وحقوقك ..

وبالنسبة لى ، لاشىء فى الدنيا يعدل حريتى وحقوقى ، فمادمت أمنح الكل حقوقهم ، فمن حقى التشبث بحقوقى ، حتى ولو كلفنى هذا علاقتى بكل مخلوق فى الدنيا ..

حتى أصدق الأصدقاء ..

لذا فأنا أرفض التنازل عن حقوقى ، مهما كان الثمن ..

ومهما كانت هوية من يحاول انتزاعها منى ..

ومهما كان الثمن أيضًا ..

ولهذا ، فكثيرًا ما تضطرنى الظروف إلى التصادم الحتمى ، مع أشخاص كنت أتمنى ألا أصطدم بهم أبدًا ..

ولكنهم لا يمنحونى أية وسيلة أخرى ، للحفاظ على حريتى ..

وخصوصياتى ..

وحقوقى ..

وعلى الرغم من حزنى للنتائج التى يسفر عنها التصادم فى المعتاد ، إلا إننى أعتبر دومًا أن هذا هو الثمن ..

ثمن الحرية ..

فالحرية ليست أبدًا رخيصة ..

الحرية دومًا غالية الثمن ..

آلاف تعذَّبوا من أجل الحرية ..

اعتقلوا ..

وأهينوا ..

وحوربوا فى أرزاقهم ، ووظائفهم ، واستقرارهم ..

وحتى فى أسرهم ..

ولكنهم احتملوا ..

وصبروا ..

وثابروا ..

فى سبيل الحرية ..

كل ما يمكن أن أدفعه إذن للتشبُّث بحريتى واستقلاليتى ، والدفاع عن خصوصياتى وحياتى ، يعد ثمنًا رخيصًا ، ما دمت أبذله فى سبيلها ..

فى سبيل الحرية ..

وفى سبيل أن يدرك الكل أنها أساس لكل مبدأ وعقيدة فى الوجود ..

فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ..

منتهى الحرية ..

ولكن السؤال الذى أطرحه على نفسى الآن ، والذى يطرحه بعضكم على نفسه أيضًا ، وهو يقرأ هذه السطور ، هو لماذا ؟!

لماذا أكتب هذا الآن ؟

لماذا ؟!

لماذا الحديث فجأة عن الحرية ..

والحقوق ..

والخصوصيات ..

والجواب هو أن هذا يرهقنى بالفعل ، منذ فترة طويلة ..

منذ تحوُّل نظام عالمى جديد يتشدَّق دومًا بالحرية والمساواة إلى وحش استعمارى استبدادى جديد ، ينطلق فى الدنيا دون ضابط أو رابط ، وكأنما امتلك الحياة والموت فى قبضة واحدة ..

برهقنى كلما قرأت أخبار الاحتلال فى أى مكان فى العالم ..

وأخبار الطغيان ..

والقهر ..

والهوان ..

والاحتلال ليس الصورة الوحيدة للقهر ، كما قد توحى الأمور ، بل إن القهر قد يُمارس بين الأشخاص العاديين ، وفى الظروف العادية أيضًا ، دون أن يكون أحدهم أكثر قوة ، أو أكثر بطشًا ..

القهر يمكن أن يمارس بسيف الحياء أيضًا ..

لهذا كان ما يؤخذ بسيف الحياء مُحَرَّمًا ..

ومكروهًا ..

وبغيضًا أيضًا ..

والقهر بسيف الحياء له صور شتى ، تختلف من مجتمع إلى آخر ، ولكنها تتفق جميعها فى أن ممارس القهر قد لايدرك أن ما يفعله قهرًا للآخرين ، بل يتصوَّر فى معظم الأحيان أنه حماية لهم ، وصيانة لأخلاقهم ..

وقيمهم ..

ونُظُم ، ربما يتصوَّر وحده ، دون سواه ، أنها لا تقبل التغيير أو المساومة ..

وفى أحيان أخرى ، يكون ممارس القهر مدركًا لما يفعله ، ويعيه جيِّدًا ، ولكنه يدرك ويعى ـ فى الوقت ذاته ـ أن الشخص المقهور أمامه ، لا يملك له ردًّا ، أو حتى مناقشة ، فقد يكون ابنه ، أو شقيقه الأصغر ، أو موظفًا لديه ، أو حتى خادمًا فى منزله ..

والأمر قد يختلف بالنسبة لمن يمارس القهر ، ولكنه يتساوى تمامًا لدى المقهور ؛ لأن موقفه واحد فى الحالتين ..

وفى كل الأحوال ..

والعجيب أن ممارس القهر لا يرى أبدًا سوى نفسه ، وقوته ، وقدرته ، واحتياجاته ، وتوجيهاته ..

والأعجب أنه يتصوَّر أن هذا يمكن أن يدوم أبدًا ، وأن يمضى الزمن ، وهو الأكثر قوة ، وعلوًّا ومقدرة ..

ولكن دوام الحال من المحال ..

ما من طاغية ، استمر يطغى إلى الأبد ..

وما من حضارة ظلَّت قوية ، مع مرور الأيام والسنين .. والقرون أيضًا ..

التاريخ يذخر بحضارات سادت .. ثم بادت ..

وبطغيان ارتفع .. ثم انحدر ..

وبجبابرة فرضوا سطوتهم وسلطانهم على الدنيا لفترات طوال ، ثم ضمهم تراب القبور ، كما ضم أحقر الحقراء ، وباتوا ينتظرون عذاب الآخرة ، الذى لا ينتهى أبدًا .. وعلى الرغم من هذا ، فالقهر مستمر ، والطغيان متواصل ، والذل لا يتوقف ، و ...

ولكن كل هذا يهون ، فى سبيل الحق ..

وفى سبيل الحرية ..

وفى سبيل الحرية ..

★ ★ ★

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
حبيبى
دراسة
٣ ـ وللحب ألوان

٣ـ وللحب ألوان ..

تُرى ما لون الحب ، الذى يروق لك بالضبط ؟!

قد يبدو لك السؤال عجيبًا غريبًا ، وربما غير منطقى أيضًا ، بل ومن المحتمل أن تستنكره ، وتغضب منه ، وتتصور أنه مجرد تلاعب لفظى ..

ولكن الواقع أن الحب له ألوان بالفعل ..

وألوان الحب ليست ألوانًا زاهية ، أو واضحة للعين ، ولكنها أشبه بقوس قزح ، يتألّق فى عمق القلب ، مع انهمار أمطار الحب فى العروق ..

وكما تميل عين كل منا إلى لون ما ، من ألوان الطبيعة ، يتناسب مع شخصيتنا ، ويصلح لتحديد اتجاهاتنا النفسية ، كذلك يميل قلب كل منا إلى لون من ألوان الحب ، يتناسب أيضًا مع شخصيته ، ويصلح لتحديد هويته النفسية .

وألوان الحب مجرَّد مصطلح ، يرتبط بالشىء الذى يجذبنا إلى محبوبنا ، أو محبوبتنا ، والذى من أجله وقعنا فى بحر حبه ، وغرقنا داخله حتى النخاع ..

وأوّل لون من ألوان الحب ، هو اللون الوردى ، أو الحب الرومانسى ، الذى ينتبه فيه كل طرف إلى المشاعر الرقيقة لدى

الطرف الآخر ، وإلى حساسيته ، وأحاسيسه ، ولمساته ، وحتى هيامه وأحلامه ..

وفى مثل هذا اللون من الحب ، يكون للمظهر الخارجى أهمية بالغة ، فى نظر كل من طرفى حالة الحب ، إذ إن النظرة الرومانسية للأمور تحتم أن يكون الطرف الآخر أشبه بنجوم السينما حتى تكتمل الصورة ، فلا يمكن لفتاة رومانسية مثلاً أن تتصوّر نفسها فى حالة حب مع شخص أصلع سمين ، له كرش ضخم ، يشف عن اهتمام غير طبيعى بالطعام والشراب ، كما يصعب على أى شاب رومانسى أن يرسم صورة حب جميلة مع فتاة بدينة ، فطساء الأنف ، أو غليظة الملامح ..

هذا لأن اللون الوردى هو الغالب على كل الأمور ..

وعلى كل الأشياء ..

والأشخاص الذين يميلون إلى الحب الوردى ، يغرقون طويلاً فى أحلام اليقظة ، ويقضون وقتًا طويلاً فى تخيُّل لحظات لقائهم القادمة مع الحبيب ، ويرسمون صورة أنيقة جميلة مثالية لها ، بل ويكتبون السيناريو الكامل للقاء ، من ناحيتهم وحدهم .. لهذا تكون صدماتهم عنيفة فى المعتاد ..

فالطرف الآخر قد يكون رومانسيًا بدوره ، مما يمنحه الحق فى أن يرسم الصورة من وجهة نظره أيضًا ..

وعندما يلتقيان ، تكون لدى كل منهما صورة رومانسية جميلة وأنيقة ، وشاعرية ، ورقيقة ..

ولكنها مختلفة ..

والاختلاف بين منظورهما للأمور ، قد يصدم كل منهما ، دون أن يقصد الآخر هذا ، أو حتى يتمناه ..

كل مافى الأمر هو أن كل منهما قد ارتطم بصورة ، تخالف تمامًا تلك التى ظل يرسمها فى ذهنه طويلاً ..

صحيح أنها تكون صورة جميلة أيضًا ، ولكنها لاتشبه صورته ..

وهذا يورثه بعض الإحباط ..

والضيق ..

وربما النقود أيضًا ..

ومع مرور الوقت ، وتكرار الإحباطات ، التى لايفصح عنها الطرفان فى المعتاد ، تتعاظم الأمور وتتمنك ، ويصبح من السهل أن يحدث الصدام ..

والخلاف ..

والفراق فى بعض الأحيان ..

هذا يمكن أن يحدث ..

ويمكن ألا يحدث أبدًا ..

فكثيرًا ما يكون المحب الرومانسى رقيق المشاعر ، حتى إنه يأبى إيذاء مشاعر الطرف الآخر ..

فيحتمل ..

ويحتمل ..

ويحتمل ..

وربما تكون لديه القدرة على الاحتمال إلى الأبد ، مهما كانت الإحباطات والمنغصات ..

بل وربما يبذل قصارى جهده أيضًا ؛ ليتوافق تمامًا مع الصورة ، التى رسمها له الطرف الآخر ..

وفى هذه الحالة سيستمر الحب ..

وستستمر الحياة ..

ولكنها لن تصبح رومانسية ، إلا من طرف واحد ..

ومن المحتمل أيضًا أن يبدأ الحب الوردى على النحو نفسه ..

من طرف واحد ..

أن يبدأ الحب بطرف رومانسى ، وآخر واقعى ..

فى هذه الحالة ستكون الخلافات أكثر ..

والإحباطات أضخم ..

وفى كل الأحوال من العسير أن يستمر الحب الوردى لفترات طويلة ، دون أن يتغير لونه ، أو تتغيَّر طبيعته ، إذ إن متغيرات الحياة نفسها ستحتم حدوث تغيرات جذرية فى الحياة ، والعمل ، والدخل ..

وحتى فى مشاعر الطرفين أيضًا ..

الطريف أن كل مخلوق فى الدنيا يحلم بحب وردى ، ولو لمرة واحدة فى العمر ، ولكن من النادر فى الوقت ذاته ، أن تجد حبًا ورديًا قادرًا على الاستمرار ، والمقاومة ..

والبقاء ..

هذا لأن الحب الوردى أشبه بالزهور اليانعة ، لايمكن أن تستمر ، وأن تحتفظ برونقها وعبيرها ، إلا لو واظبت على رعايتها والعناية بها ، دون أن تغفل عينك عنها لحظة واحدة .. وفى عالمنا ، لايمكنك أن تعتنى بزهرتك الوردية ، بكل هذا القدر ، دون أن تهمل جوانب أخرى من الحياة ، لها أهمية قصوى للاستمرار والتقدُّم ..

هذا يخص الحب الوردى ..

فماذا عن الحب الأحمر ؟!

والحب الأحمر هو حب قوى ..

نارى ..

ملتهب ..

حب يولى اهتمامًا كبيرًا بالجسد ، بأكثر مما يوليه للروح ..

بمعنى أدق ، هو حب غارق فى المشاعر الحسية ، والمتع الجسدية ..

والذين يميلون إلى الحب الأحمر ، هم فى المعتاد ممن لا يتصورون الحياة أو الحب ، دون تلامس بين المحبين ..

وهذا التلامس لايكتفى بمداعبات الأصابع ، أو عناق الأيدى ، ولكنه ينشد دومًا ما يفوق هذا ..

بكثير ..

وأصحاب الحب الأحمر يميلون دائمًا للأجساد المثالية ، التى تشف عن قوة وذروة نوعية ..

فالأنثى لا تميل إلا إلى الذكر القوى المفتول العضلات ، الخشن الصوت والملامح الصارم فى أسلوبه وتعاملاته .

أما الذكر ، فلا تجذب انتباهه سوى أنثى مفرطة فى الأنوثة ، فى صوتها ، وهيئتها ، وقوامها ، وحركاتها ، وإيماءاتها ..

ما ينطبق على الحب الوردى ، ينطبق على نحو أكثر وضوحًا ، على الحب الأحمر ..

مع فارق واحد ..

ففى معظم الأحوال ، تكون الأنثى هى الطرف المتسامح ، فى مثل هذه العلاقة ، إذ إن اهتمام الذكر بالعلاقات الجسدية يفوق اهتمام الأنثى بمراحل شتى ، حتى إنه فى طبيعته الجينية ، لايمكنه أن يكتفى بأنثى واحدة ، إلا بصعوبة بالغة ، وهذا ما أثبتته الأبحاث العلمية مؤخرًا ، عندما أكدت أن جينات الذكر تدفعه إلى التعدُّد فى العلاقات ، فى حين أن جينات الأنثى تدفعها إلى الاستقرار والانفرادية فى علاقاتها ..

وبالطبع توجد استثناءات لكل قاعدة ، ولكن هذا يوضّح لنا لماذا أحلّ الله (سبحانه وتعالى) للذكر مثنى وثلاث ورباع ، فى حين لم يحل للمرأة سوى زوج واحد ..

وسيختلف معى البعض بشدة حتمًا ، حول هذه النقطة ، وستفهمنى النساء بالتحديد بأننى أدعو إلى تعدد الزوجات وربما تتهمنى بعضهن بالتخلُّف والهمجية أيضًا ، كما اعتدن مهاجمة كل من يناقش هذه النقطة ، ولكن العلم والدين لايعرفان المجاملة أو المهادنة ..

فالعلم هو العلم ..

والدين هو الدين ..

ونحن أضعف وأقل من أن نعاند أمرًا كهذا ..

ببساطة لأننا نجهل الصورة الكاملة للأمور ..

ونجهل أكثر ما الذى يمكن أن يحدث غدًا ..

فماذا لو نشبت حرب طاحنة ، والتهمت الشطر الأعظم من الذكور ، كما تفعل معظم الحروب ؟!

ماذا ستفعل النساء عندئذ ؟!

ربما لن يكون هناك أمل سوى فى التعددية ؟!

ربما !!

لا أحد يدرى ..

ولا أحد يعلم ..

ولهذا ليس من حق أحد أن يهاجم أو يعاند ..

ولكن دعنا نعود إلى موضوعنا الرئيسى ..

الحب الأحمر ..

فهذا الحب هو أسهل حب يمكن أن يذبل وينزوى مع الزمن ، ببساطة لأن الزمن نفسه لن يُبقى على مثالية الأجساد ، مهما بذل أصحابها من جهد ..

ستذبل الأجساد حتمًا مع الوقت ..

وتهرم ..

وتشيخ ..

وتذوى ..

ولو أن الحب يرتبط بها وحدها ، فسيمر بكل المراحل السابقة .

أو يمر قبلها بمرحلة أكثر خطورة ..

مرحلة الاعتياد ..

فالحب القائم على الجسد ، حب سريع الملل والضجر ، وأى مخلوق فى الدنيا ، مهما امتلك جسدًا رائعًا ، لن يلبث أن يبدو عاديًا مألوفًا ، بل ومضجرًا أيضًا ، فى عينى الطرف الآخر ، بعد أن يمتلكه بالفعل ، ويعتاده ، ويفقد حالة الانبهار والانجذاب تجاهه ..

ولهذا تفشل معظم حالات الحب الأحمر ، لو أنها لا تستند إلى أى أمر آخر .. تفشل تمامًا ..

وعلى الرغم من أن بعض الإناث تلجأن إلى استثارة الأجساد ، كسبيل للإيقاع بحبيب ، إلا أنهن يدركن جيدًا ، فى الوقت ذاته ، أن الارتباط الجسدى واه وهش للغاية ؛ لأن المحب لن يلبث أن يعشق جسدًا آخر ، أو يقع فى غرام قوام أفضل ..

أو حتى قوام مختلف ..

ولهذا تجد أن معظم الأزمات النفسية من نصيب عشاق الحب الأحمر ؛ لأنهم فى حالة تنافس مستمرة ، وصراع متصل ، للحفاظ على وجودهم ، وتفوقهم ، وحبهم ..

ولايشعرون بالاستقرار أبدًا ..

ومن هذا الجانب يعتبر الحب الأحمر أكثر أنواع الحب تعبًا وإرهاقًا ، وأسرعها ذبولاً وفناء على الإطلاق ..

هذا بخلاف الحب الأخضر ..

والحب الأخضر هذا .. هو حب ناضج ، يدرك كل طرف فيه مزايا وعيوب الطرف الآخر ، ويتقبله بجانبيه ، الجيد والردىء ، باعتبار أنه ما فى إنسان كامل ..

بل وما من مخلوق كامل ، فى الكون كله ..

فالكمال لله (سبحانه وتعالى) وحده ..

وأصحاب الحب الأخضر هم الأكثر قدرة على تحمل المصاعب ، وتجاوز العقبات ، وتفادى المصادمات العنيفة ، لذا فهم الأقدر على التواصل ، والاستمرار ..

والنجاح ..

وفى الحب الأخضر ، يتم الاختيار بمزيج من العقل والقلب معًا ، فكل طرف يحب شيئًا ما فى الطرف الآخر ، ويتغاضى عن أشياء أخرى قد لا تروق له ، أو تتوافق معه ..

وحالات الحب الأخضر قابلة للنجاح أكثر من غيرها بكثير بشرط

ألا تكون عيوب أحد الطرفين جوهرية او خطيرة ، كالبخل الشديد ، أو العصبية المفرطة ، أو العدوانية غير المبرَّرة مثلاً ..

فالأنثى مثلاً ، يمكن أن تحتمل أى عيوب فى الذكر ، فيما عدا بخله ..

البخل الشديد ينفرها ، ويغضبها ، ويحنقها ، ويجعلها تتصوَّر أنها لا تساوى شيئًا فى نظر محبوبها ..

وفى مراحل صباها ومراهقتها ، وأوائل شبابها ، قد لا تجيد الأنثى التفرقة بين محدودية دخل المحبوب وطبيعته البخلية ، فتسىء تفسير عجزه المادى عن الإنفاق ، باعتباره بخلاً وشحًا ..

وقد تغضب ..

وتثور ..

وتهجر أيضًا ..

وفى مرحلة نضجها ، ستدرك طبيعة الفرق ..

وعندئذ ستحتمل ..

وترضى ..

وتحب ..

هذا لو أنها تميل إلى الحب الأخضر ..

الحب الواقعى ..

المنطقى ..

والمتسامح ..

وفى نفس الوقت ، الذى نجد فيه ألوانًا من الحب ، تميل إلى الرومانسية ، أو الشهوانية ، أو تمزج بين العقل والقلب ، نجد أيضًا نوعًا من الحب بلا ألوان ..

حب أبيض وأسود ..

حب واقعى تمامًا ، لا يرى من الحياة أية درجة من درجات اللون الرمادى ..

يرى فقط اللونين الأساسيين ..

الأبيض .. والأسود ..

وهذا اللون من الحب ليس لديه أمور وسط ، فكل شىء إما صحيح تمامًا ، أوخطأ تمامًا ..

وسيدهشك أن أصحاب هذا الحب ، هم القادرون على التعامل مع كل أصحاب الألوان الأخرى ، مادام هذا يحقق مصالحهم ، التى يحسبونها دومًا بمنتهى الدقة ، ولايتنازلون عن تحقيقها أبدًا ..

فالحب فى نظرهم مجرَّد وسيلة ، لتحقيق أحلامهم وطموحاتهم ، مع أقل القليل من التعب والتضحيات ..

وأصحاب هذا النوع ، لاتخفق قلوبهم أبدًا ، حتى إنهم قد يبدون كمن لا قلب له ولا مشاعر عنده ..

وحتى لو حاولت قلوبهم أن تخفق ، فهم يخمدون خفقانها على الفور ؛ لأن نبضات القلب والحب عندهم مجرد حماقة ، أو نقاط ضعف ، لابد من هزيمتها ، والتغلب عليها فورًا ، وإلا فسدت خططهم ، وضاعت أحلامهم إلى الأبد ..

ولأنهم لا يحبون أبدًا ، يكون باستطاعتهم أن يتلاعبوا بمشاعر الطرف الآخر ، أيًا كان لونه ..

فلو أنهم يرتبطون بشخص رومانسى النزعة ، تجدهم أساتذه فى التعامل بمنتهى الرومانسية والشاعرية والرقة ..

ولو كان المحب من هواة الحب الأحمر ، سيبذلون كل ذرة فى أجسادهم ، لإرضائه ، وإمتاعه ، وخلب لبه ..

أما لو أنه من المنتمين إلى الحب الأخضر ، فستكون المعركة صعبة إلى حد كبير ، إذ إن عليهم أن يملئوا عقله وقلبه معًا ..

وهم فى العادة يفلحون ..

ولكن لفترة محدودة ..

فترة قد تطول او تقصر ، ولكنها تنتهى بكشف أمرهم حتمًا ..

هذا لأنهم لايحتملون التلوّن طويلاً ..

وإن عاجلاً أو آجلاً ، سنيكشف أمرهم ، وتسقط الأقنعة عن وجوههم ، ويظهرون على حقيقتهم ..

أحيانًا فى الوقت المناسب ..

وغالبًا بعد فوات الأوان ..

وعندئذٍ تحدث ، الكارثة ، وتكون صدمة عنيفة للطرف الثانى ، و ..

ولهذا حديث آخر .

* * *

تابع فى الكتب القادمة إن شاء الله ..

١ـ السـفينة ..

« سفينة مجهولة تقترب من الميناء .. »

انطلق النداء بغتة ، عبر جهاز الاتصال ، فى مكتب العميد (ممدوح) ، مدير أمن ميناء الإسكندرية ، الذى لم يكد يسمع العبارة ، حتى اعتدل على مقعده فى حركة حادة ، وضغط زر جهاز الاتصال ؛ متسائلاً :

ـ مجهولة ؟! ماذا تعنى بأنها مجهولة يا رجل ؟! أية سفينة تدخل مياهنا الإقليمية ، لابد وأن تحدّد هويتها وبياناتها ، ومن غير المعقول أن تصل سفينة إلى الميناء ، دون أن تكون لدينا بيانات كاملة عنها ، من خلال ضابط اتصالها ، أو الشركة المالكة لها ، أو حتى قوات حرس السواحل !

بدا من الواضح أن الرجل ، على الطرف الآخر لجهاز الاتصال ، يعانى مزيجًا من الحيرة والارتباك والتوتر ، وهو يجيب :

ـ لم تصلنا أية معلومات ، بشأن هذه السفينة بالتحديد .

هتف العميد (ممدوح) ، وقد انتقلت إليه انفعالات الرجل :

ـ هذا مستحيل !

أجابه الرجل فى سرعة ، وكأنه يلقى ما لديه :

ـ هذا ما حدث .

التقى حاجبا العميد (ممدوح) فى شدة ، وعقله يلتهب بأسئلة ، تكاد تلتهم كل ذرة من كيانه ..

سفينة مجهولة ؟!

أى مصطلح هذا ؟!

إنه يعمل فى إدارة أمن الميناء ، منذ خمسة عشر عامًا تقريبًا ، ولم يسمع هذا المصطلح مرة واحدة !

فالمفترض ـ وفقًا لكل القوانين البحرية ، والمعايير والأعراف الدولية ـ أن تعلن أية سفينة هويتها فى وضوح ، فور دخولها إلى المياه الإقليمية لأية دولة فى العالم ، وأن تحصل على تصريح بدخول أى ميناء ، وإلا فمن حق القوات البحرية أو قوات حرس السواحل ، أن تتصدى لها ، وتوقفها بالقوة ، حتى ولو اقتضى الأمر نسفها نسفًا ، حماية للأمن القومى ..

وهذا لم يحدث مرة واحدة ، منذ التحق بالعمل ..

وحتى لو حدث ، فسيتم التعامل مع السفينة المعتدية ، عند حدود المياه الإقليمية ، وعلى مسافة مئات الأميال البحرية من الميناء ..

ولو تجاوز الأمر كل الحدود ، لسبب ما ، ونجحت السفينة فى تجاوز نطاق القوات البحرية ، وقوات حرس السواحل ، واتجهت عنوة نحو الميناء ، فسيتم إرسال تحذير بما حدث ، حتى تنتظر قوات الأمن وصول السفينة ، وتسعى لفرض سيطرتها عليها ، فور رسوّها على رصيف الميناء ..

« السفينة المجهولة تواصل الاقتراب ، بسرعة تتجاوز الحد الأمنى .. »

انتزعت عبارة الرجل العميد (ممدوح) من أفكاره ، وأسئلته الملتهبة ، فازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يقول فى دهشة عصبية :

ـ ألم تبطئ من سرعتها ، استعدادًا لدخول الميناء ؟!

أجابه الرجل فى توتر بلغ ذروته :

ـ مطلقًا .. إنها تنطلق نحو الرصيف بسرعة عالية ، وفى خط مستقيم ، ولا تستجيب للتحذيرات اللاسلكية أو الضوئية أو إشارات الأعلام البحرية .

شعر العميد (ممدوح) بقشعريرة عجيبة ، تسرى فى كل ذرة من كيانه ، وهو ينهض من مكانه ، متمتمًا :

ـ عجبًا ! ولكن هذا يمكن أن ..

لم يتم عبارته ، وهو يندفع ، فى توتر متناه ، نحو النافذة الكبيرة ، فى نهاية حجرة مكتبه ، والمطلة على رصيف الميناء مباشرة ، والتقط منظاره المقرّب بحركة حادة ، قبل أن يصل إليها ، و ...

وتجمّدت كل ذرة فى كيانه ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ..

فالأمر لم يكن يحتاج إلى أية مناظير ، مقرّبة أو مكبّرة ..

لقد كانت السفينة واضحة للعين المجرّدة ..

واضحة فى مشهد رهيب ..

رهيب للغاية ..

كانت سفينة سوداء ، داكنة السواد ، يرفرف على ساريتها علم كبير غير واضح المعالم ..

وكانت تتجه نحو الميناء مباشرة ..

وبسرعة مخيفة ..

ولثانية أو ثانيتين ، ظلّ العميد (ممدوح) يحدّق فى المشهد ، ثم لم يلبث أن انتفض فى عنف ، وكأنما ينتزع نفسه من حلم عميق ، ثم أزاح (ضلفة) النافذة الزجاجية ، صارخًا بكل قوته وانفعاله :

ـ أخلوا المكان بأقصى سرعة .

وكأن الجميع كانوا ينتظرون صيحته هذه ؛ فلم تكد تنطلق ، حتى انطلق الجميع معها ، يعدون فى كل الاتجاهات ، دون نمط واضح أو محدد ..

لقد تفجّر نهر من الذعر والهلع فى نفوسهم ، فتركوا ما بأيديهم ، وانطلقوا محاولين الفرار ، من ذلك الوحش المعدنى الطائش ، بأية وسيلة ..

وبأقصى سرعة ..

أما العميد (ممدوح) ، فقد بلغ توتره ذروة ، لم يبلغها من قبل قط ، وهو يراقب تلك السفينة المجهولة ، وهى تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

وبكل قوته ، تشبثت أصابعه بإطار النافذة ، وتجمد جسده ، على نحو لم يحدث فى حياته كلها ، عندما صارت السفينة الرهيبة على بعد أمتار قليلة ، من رصيف الميناء ..

ثم كان الارتطام ..

أبشع مشهد رآه فى حياته كلها ..

سفينة ضخمة ، ارتطمت برصيف الميناء ، وحطمت كل ما أمامها بمنتهى العنف ، قبل أن تثب فوق اليابسة ، وتميل على نحو مخيف ، وهى تواصل اندفاعها ، واكتساح كل ما يعترض طريقها ..

واتسعت عينا العميد (ممدوح) عن آخرهما ..

فالسفينة السوداء كانت تتجه ، فى زحفها على الجزء اليابس ، نحو النافذة التى يقف عندها مباشرة ..

وبسرعة رهيبة ..

ولثانية ، تجمد العميد (ممدوح) فى مكانه أكثر ..

وخلال تلك الثانية ، بدت له السفينة ، وكأنها تتضخم ، وتتضخم ، حتى تحولت إلى جدار أسود هائل ، راح يتعاظم ويتعاظم ، قبل أن يستيقظ عقل العميد (ممدوح) بغتة ، ويطلق إشارة خطر إلى عضلاته ، التى انتشر فى عروقها الأدرينالين ، الناشئ عن الانفعال ، فانقبضت كلها بمنتهى القوة ، ودفعت جسده إلى الخلف ، فى نفس اللحظة التى ارتطمت فيها مقدمة السفينة المجهولة ، بنافذة حجرة مكتبه ، وحطمتها بمنتهى العنف ، فتناثر زجاجها فى كل اتجاه ..

ورفع (ممدوح) ذراعيه ؛ فى محاولة لحماية وجهه ، من الزجاج المتطاير ، وهو يصرخ بانفعال غريزى :

ـ مستحيل ! مستحيل ؟

لم يكن يرى ما أمامه ، ولكنه كان يدرك مع دوى الأصوات من حوله ، أن مقدمة السفينة الرهيبة تواصل تحطيم محتويات مكتبه ، وهى تتجه نحوه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ثم فجأة ، توقف كل شىء ..

وتلاشى الضجيج إلى حد كبير ..

ومع توتره الزائد ، خفض العميد (ممدوح) ذراعيه عن وجهه ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدق فيما أمامه ..

قى ذلك الامتداد المعدنى الأسود الهائل ، الذى بدا وكأنه بلا نهاية ..

فالسفينة السوداء المجهولة ، توقّفت ، بعد أن حطّمت كل ما أمامها ، على مسافة ثلاثين سنتيمترًا منه فحسب ..

وكان هذا أعنف موقف واجهه فى حياته كلها ..

أعنف موقف على الإطلاق ..

ليس فى حياته فحسب ، ولكن فى حياة ميناء (الإسكندرية) ..

وفى تاريخه كله ..

★ ★ ★

بدا التوتر واضحًا ، على وجوه الحشد الهائل ، من رجال الشرطة والجيش ، الذين أحاطوا بتلك السفينة السوداء ، التى استقرّت على رصيف الميناء ، فى مشهد رهيب ، ينافس أعنف مشاهد أفلام الكوارث ، فى السينما العالمية ..

كان ثلثها الخلفى فقط ما زال داخل الماء ، فى حين استقر ثلثاها الأماميان فوق الرصيف ، وغاصت مقدمتها كلها فى قلب مبنى أمن الميناء الرئيسى ، فى حين مالت السفينة كلها على جانبها الأيمن ، على نحو يوحى بأنه لولا استناد مقدمتها على جدران المبنى الذى اقتحمته ، لسقطت على جانبها ..

أما ما يحيط بها ، فقد كان صورة مجسّمة للدمار والفوضى ، حتى أن مدير الميناء كان يهتف ، فى مزيج من الغضب والمرارة :

ـ من سيتحمل تكلفة ما حدث ؟! من سيتحمّل مسئولية كل هذا ؟! من ؟!

أجابه العميد (ممدوح) ، فى غلظة لم يتعمّدها :

ـ اطمئن يا رجل .. إنه ليس أنت بالتأكيد .

هتف مدير الميناء فى حدة :

ـ من إذن ؟!

زفر العميد (ممدوح) ، بكل ما يعتمل فى صدره من انفعالات والتهابات ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ لا يمكنك أن تتصوّر كم أتمنى معرفة جواب هذا السؤال .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى جذب انتباهه صوت سيارة تقترب من المكان ، فاستدار إلى مصدر الصوت ، وهو يتوقّع رؤية سيارة من سيارات الشرطة ، أو حتى من سيارات الجيش ، لذا فقد انعقد حاجباه بشىء من العصبية ، عندما لاحظ أنها سيارة مدنية عادية ، يقودها رجل وسيم الملامح إلى حد ما ، يرتدى حلّة مدنية أنيقة ، وغمغم :

ـ من هذا بالضبط ؟!

استدارت العيون كلها إلى السيارة ، التى توقَّفت على مسافة ثلاثة أمتار فحسب من يسار السفينة السوداء ، قبل أن يغادرها الرجل ، الذى بدا هادئًا إلى حد مدهش ، يتنافى مع كل قواعد العقل والمنطق ، وهو يتطلَّع إلى السفينة ، قبل أن يقول ، فى صوت لا يقل هدوءًا عن ملامحه :

ـ إنها كما وصفوها تمامًا ..

ولسبب ما ، لم يحتمل العميد (ممدوح) هذا الهدوء الزائد ، فاتجه نحو الرجل ، وقال فى عصبية واضحة :

ـ من أنت بالضبط ؟! وكيف دخلت بسيارة مدنية إلى هنا ، فى مثل هذه الظروف ، و ....

قاطعه الرجل ، وهو يلتفت إليه فى هدوء :

ـ اسمى (رأفت) .. من جهاز المخابرات .. وأنا أتولَّى القضية ، منذ هذه اللحظة .

انعقد حاجبا مدير الميناء فى توتر ، وهو يردد :

ـ المخابرات ؟!

وسرت همهمة غير واضحة فى المكان ، وكأنما يتناقل الجميع الخبر ، فى حين تساءل العميد (ممدوح) بنفس العصبية :

ـ وما شأن المخابرات بأمر كهذا ؟! اقتحام سفينة مجهولة للميناء ، أمر يخصّ الأمن العام ؟!

ابتسم (رأفت) هذا فى هدوء ، وهو يقول :

ـ ربما كان للمسئولين رأى آخر .

قالها ، وهو يتجه نحو السفينة ، فلحق به العميد (ممدوح) ، قائلاً ، وهو يحاول عبثًا السيطرة على عصبيته :

ـ المفترض ، وفْقَ ما تعلمناه ، أنه لا شأن للمخابرات بالأمور الداخلية ، وأن ..

قاطعه (رأفت) ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ هل صعد أحد إلى سطحها بعد ؟!

مطَّ (ممدوح) شفتيه ، وكأنما لم يرق له الأمر كله ، إلا أنه أجاب فى توتر شديد :

ـ ليس بعد .. لقد استخدمنا مكبرات الصوت ؟ لنطالب من على سطحها بالاستجابة ، ولكننا لم نتلق جوابًا ، ثم إن العلم الذى يعلو ساريتها ، غير معروف على الإطلاق ، لا بين الأعلام الدولية ، أو حتى البحرية .

رفع (رأفت) عينيه ، يتطلَّع إلى العلم ، الذى ما زال يرفرف على سارية السفينة ، بلونه الذهبى المتألق ، والذى تتوسَّطه دائرة حمراء لامعة ، ثم قال فى هدوء :

ـ بالتأكيد .

لم يتمالك (ممدوح) نفسه ، فقال فى حدة :

ـ يبدو أنك لا تبالى كثيرًا بالأمر ، يا رجل المخابرات .

خفض (رأفت) عينيه إليه فى هدوء مدهش ، وتطلَّع إليه بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ لا تجعل الظواهر تخدعك يا رجل .

أراد (ممدوح) أن يقول عبارة أخرى ، يعارض بها قول رجل المخابرات ، إلا أنه لم يكن قد فتح فمه بعد ، عندما تابع (رأفت) فى حزم :

ـ أريد ما يساعدنى على الصعود إلى سطح السفينة .

هتف (ممدوح) فى دهشة مستنكرة :

ـ ألن ننتظر رجال المعمل الجنائى أولاً ؟!

أشار (رأفت) بيده ، قائلا فى حزم أكثر :

ـ دعنا نرى أوَّلاً ، ما إذا كنا سنحتاج إليهم أم لا .

قالها ، ثم بدأ يلقى تعليماته إلى من حوله ، لإعداد وسيلة الصعود إلى سطح السفينة المجهولة ، فعقد (ممدوح) حاجبيه ، وحاول أن يلوذ بالصمت لبعض الوقت ، إلا إنه لم يستطع تمالك نفسه تمامًا ، فقال فى شىء من الحدة ، حمل رنة غضب واضحة :

ـ وفقًا لما تعلمناه ، ينبغى ألا تتدخَّل ، فى مسرح الجريمة ، قبل وصول رجال المعمل الجنائى .

لم ترق له أبدًا تلك الابتسامة ، التى ارتسمت على شفتى (رأفت) ، وهو يقول :

ـ مسرح الجريمة ؟! إننا لم نتأكَّد بعد ما إذا كنا أمام جريمة أم لا ، يا سيادة العميد .

فجأة ، ومع تلك الكلمات ، انتبه (ممدوح) فجأة إلى حقيقة الموقف ..

صحيح أن تلك السفينة قد اقتحمت الميناء على نحو لم يحدث من قبل قط ، وأنها أثارت موجة غير مسبوقة من الرعب والتدمير فى المكان ، إلا أن شيئًا لم يؤكد بعد أن هناك جريمة ما ، وراء ما حدث ..

ربما افترض الكل هذا ، عندما لم تستجب السفينة لكل محاولات الاتصال ، حتى بعد ارتطامها بالميناء ..

أو ربما لأنه لم يظهر على سطحها شخص حى واحد ، لا من طاقمها ، ولا حتى من ركابها ..

هذا جعل الكل يتصوَّر أن السفينة تحمل جثث الجميع ، الذين لقوا مصرعهم لسبب ما ..

سبب لم يخطر ببال مخلوق واحد ..

ولكن العنف ، والمفاجأة ، والتدمير، كلها دفعن الأذهان جميعها نحو افتراض وجود جريمة ما ..

هذه هى الصورة الوحيدة ، التى ملأت عقول الجميع ، مع كل ما حدث ..

ولكن رجل المخابرات هذا جاء ليلقى عبارة ، فجّرت سؤالاً مقلقًا للغاية فى الأذهان ..

كل الأذهان ..

لو أن ما حدث ليس بسبب جريمة ما ، فما الذى يمكن أن يكون ؟!

كاد السؤال ينتقل ، من ذهن العميد (ممدوح) إلى لسانه ، وهو يصعد مع (رأفت) وحدهما ، إلى سطح السفينة ، إلا أنه قرّر أن يدخره لنهاية الفحص ؛ فقد تثبت المشاهدة أن هناك جريمة ما بالفعل ..

ولكن النظرة الأولى لم تكن توحى بهذا على الإطلاق ..

فسطح السفينة الغامضة كان هادئًا ، نظيفًا ، خاليًا من أى أثر للحياة ..

أو حتى للموت ..

لم تكن هناك جثثًا متناثرة ، كما رسم خيال (ممدوح) فى البداية ، أو بقع دماء ، أو حتى بقع مجهولة الهوية ..

كل شىء كان نظيفًا هادئا ، إلى درجة تتجاوز حتى ما يمكن وجوده ، فى الظروف العادية ..

وبكل دهشة الدنيا ، هتف (ممدوح) :

ـ ما الذى حدث هنا بالضبط ؟!

أدار (رأفت) عينيه فى المكان ، وهما يتجولان فى أرجاء السفينة ، وأجاب بنفس الهدوء ، الذى ما زال يستفز العميد (ممدوح) :

ـ سؤال جيد يا سيادة العميد ؛ فحتى الآن ، تبدو لى السفينة خالية تمامًا من البشر ، أو من أى نوع آخر من الحياة .. بل يخيّل إلىّ أنه لا يوجد بها حتى تلك الفئران ، التى تتواجد عادة فى قاع السفن .

تطلّع (ممدوح) فى توتر إلى قمرة القيادة ، التى بدت مثالية أكثر مما ينبغى ، وكل شىء فيها مرتب منسّق ، على نحو يوحى بأن يدًا لم تعبث بها ، أو حتى تزاول فيها أية أعمال معتادة ، منذ فترة طويلة للغاية ، وعادت عشرات الأسئلة تعربد فى رأسه ، قبل أن يرفع عينيه مرة أخرى إلى ذلك العلم الذهبى ، ذى الدائرة الحمراء اللامعة ، مغمغمًا فى عصبية شديدة :

ـ لست أفهم شيئًا .. هذه السفينة تبدو وكأنها قد خرجت من حوض بناء السفن منذ قليل ، ولم يتم تدشينها بعد !! كيف تجاوزت مياهنا الإقليمية ، بحالتها هذه ، دون أن يستوقفها أحد ؟!

قال (رأفت) ، فى شىء من الصرامة :

ـ إنها لم تفعل .

استدار إليه (ممدوح) ، يسأله فى دهشة متوترة :

ـ لم تفعل ماذا ؟!

أجابه (رأفت) ، فى صرامة أكثر :

ـ لم تدخل مياهنا الإقليمية ؟!

هزّ (ممدوح) رأسه فى عصبية ، قائلاً :

ـ أى قول هذا يا رجل المخابرات ؟! السفينة هنا بالفعل ، ولقد تجوّلنا فيها معًا ، وفحصنا كل حجراتها تقريبًا ، فكيف تقول إنها لم تدخل مياهنا الإقليمية ؟!

استدار إليه (رأفت) بجسده كله ، وهو يقول فى حزم :

ـ ليس هذا ما أقوله يا سيادة العميد ، بل ما تقوله تقارير رادارات القوات البحرية ، وزوارق المراقبة التابعة لحرس السواحل .. هذه السفينة لم تعبر مياهنا الإقليمية قط ، بل ظهرت فجأة ، على بعد عدة أميال بحرية من الميناء .. نعم لا تحدّق فى وجهى بكل هذا الذهول المستنكر .. لقد سمعتنى جيّدًا .. هذه السفينة ظهرت فى البحر فجأة .. ظهرت من العدم ..

وكانت مفاجأة للعميد (ممدوح) ..

مفاجأة مذهلة ..

★ ★ ★

٢ ـ الأشـــباح ..

على الرغم من كل ما بذله من جهد ، لم يستطع العميد (ممدوح) أبدًا السيطرة ، على تلك الارتجافة التى سرت فى جسده ، والتى تواصل رج مشاعره كلها ، منذ كان مع رجل المخابرات على متن تلك السفينة الغامضة ..

وعندما انتقلت تلك الارتجافة إلى أصابعه ، وإلى رشفات الشاى الساخن ، التى تناثرت من طرف شفتيه ، شعر بحنق وسخط شديدين ، حاول أن يخفيهما ، مع توتره وارتجافته ، خلف نبرات غاضبة زائفة ، وهو يقول فى عصبية بدت مبالغة :

ـ قلت : إنك لن تستعين برجال المعمل الجنائى .

هزّ (رأفت) كتفيه فى هدوء ، وهو يجيب :

ـ بل قلت : إننا لا ندرى ما إذا كنا سنحتاج إليهم أم لا .. لقد صعدنا إلى سطح تلك السفينة ، وكلانا يجهل تمامًا ما يمكن أن يواجهنا هناك ، ثم ..

قاطعه (ممدوح) بحدة مفاجئة :

ـ هراء .

التفت إليه رجل المخابرات ، بوجه يخلو من الانفعالات تقريبًا ، فتابع فى حدة :

ـ أراهن أننا ، عندما صعدنا إلى تلك السفينة ، كنت أنت تعلم ما سنجده هناك .

كان يتوقّع غضبًا أو استنكارًا ، أو محاولة غليظة للنفى على الأقل ؛ لذا فقد أدهشه حقًا أن ارتسمت ابتسامة هادئة ، على شفتى رجل المخابرات ، وهو يقول :

ـ ومن أين لى أن أعرف ؟!

صاح به (ممدوح) ، وقد تضاعف غضبه :

ـ إنك لم تبد أية انفعالات مناسبة ، عندما وجدنا ما وجدناه هناك .

مال (رأفت) نحوه ، وسأله بمنتهى الهدوء :

ـ وما الذى وجدناه هناك ؟!

تراجع (ممدوح) بحركة حادة ، واتسعت عيناه فى هلع عجيب غير مبرّر ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ لا شىء ..

وصمت لحظة ، قبل أن يستطرد فى حنق :

ـ وكان هذا كفيلاً بأن يدهشك .

لم يعلّق (رأفت) على القول لبضع لحظات ، وإنما بدا أكثر غموضًا من أية لحظة مضت ، وهو يتطلّع إلى عينى (ممدوح) مباشرة ، فى صمت تام ، قبل أن يعتدل فجأة ، ويقول فى حزم :

ـ عندما تبدأ مهمتى بتقرير عن سفينة غامضة ، تحمل علمًا مجهولاً ، ظهرت فى مياهنا الإقليمية ، وعلى شاشات رادارانا فجأة ، وكأنما نبتت من العدم ، فمن الطبيعى أن يكون لدى كل الاستعداد ، لاستيعاب أية مفاجأة أخرى ، على متن تلك السفينة ، بعد أن ارتطمت بأهم مواتى (مصر) ، على نحو يوحى بأنها كانت تنطلق طوال الوقت بلا قبطان .

استوعب عقل (ممدوح) هذا المنطق بسرعة عجيبة ؛ إذ لم يستغرق سوى ثوان ثلاث ، حدّق خلالها فى وجه (رأفت) ، قبل أن يسأله ، فى توتر لم يفارق صوته بعد :

ـ وهل رأى المسئولون أن المخابرات هى أفضل جهة ، للتحقيق فى أمر كهذا ؟!

تراجع (رأفت) فى مقعده ، فى هدوء عجيب ، وشبّك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يواصل التطلّع إلى (ممدوح) فى صمت ، لفترة زادت عن الدقيقة الكاملة ، قبل أن يسأله فى اهتمام :

ـ هل سمعت يومًا عما يُعرف باسم (تجربة فيلادلفيا) ؟!

انعقد حاجبا (ممدوح) فى توتر ، وهو يتساءل :

ـ تجربة ماذا ؟!

هزَّ (رأفت) رأسه فى بطء ، ثم قال فى حزم لم ينتقص من هدوئه المدهش :

ـ فى ذروة الحرب العالمية الثانية ، وبالتحديد فى أكتوبر ١٩٤٣م ، فى القاعدة البحرية الأمريكية فى (فيلادلفيا) ، أجريت تجربة مدهشة ، كان من الممكن أن تغير تاريخ العالم كله .

تساءل (ممدوح) ، وتوتره يتصاعد :

ـ أية تجربة تلك ؟!

واصل (رأفت) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ لقد قام فريق من العلماء بتركيب عدد من الأجهزة ، على المدمرة البحرية (DE - 173) ، وعلى مدمرتين أخريين حولها ، ثم بدأت التجربة ، فأطلقت المدمرتان الأخريان طاقة ما ، اتصلت بالأجهزة على متن (DE - 173) ، وأحاطتها بطنين قوى ، و ....

قاطعه (ممدوح) فى عصبية :

ـ هل ستواصل الخوض فى التفاصيل طويلاً ؟!

رمقه (رأفت) بنظرة هادئة صامتة ، قبل أن يعتدل بحركة حاسمة ، قائلاً :

ـ اختفت .

ردّد (ممدوح) ، فى توتر عصبى حذر :

ـ ما الذى اختفى ؟!

أجابه (رأفت) فى حزم :

ـ المدمرة (DE - 173) ، اختفت تمامًا(*) .

فغر (ممدوح) فاه ، دون أن ينطق بكلمة واحدة ، فنهض (رأفت) من مقعده ، وهو يواصل بنفس الحزم :

ـ فى ذلك الحين ، اختفت المدمرة ، أمام أعين الجميع ، بعد أن تمت إحاطتها بمجال كهرومغنطيسى قوى ، وعلى الرغم من هذا فقد فشلت التجربة تمامًا ؛ لأن المجال الكهرومغنطيسى ، الذى أخفاها عن الأعين ، أصاب كل البحارة على سطحها بما يشبه الجنون ، بل وتسبَّب فى مصرع اثنين من أفراد طاقمها أيضًا ، كما أن أجهزتها كلها أصيبت بالخلل ؛ بسبب المجال نفسه ، مما جعل الكل يجزم بأن فكرة الإخفاء ، بهذا الأسلوب بالذات ، غير مجدية على الإطلاق ، مما ألقى التجربة ونتائجها كلها فى غياهب النسيان .

شحب وجه (ممدوح) ، على نحو عجيب ، وهو يغمغم :

ـ إنك لا تقصد أن ..

قاطعه (رأفت) بإشارة من يده ، جعلته يطبق شفتيه تمامًا ، فى حين تابع هو :

(★) تجربة حقيقية ، لم تعترف الولايات المتحدة بإجرائها رسميًا أبدًا ، ولكن المشاركين فيها كلهم أكّدوا حدوثها ، فى ذلك التاريخ .

ـ التجربة التى أخبرك عنها ، تمت منذ ما يزيد عن ستين عامًا ، وكلانا يعلم كم تطوَّر العلم ، خلال تلك الفترة الطويلة ، فلقد قرأت فى إحصائية علمية قريبة ، أن العلم قد تطوَّر ، خلال الأعوام العشرين الأخيرة ، بمعدَّل يفوق ضعف تطوُّره ، منذ القرن الثالث الميلادى ، حتى منتصف القرن العشرين(*) .

تمتم العميد (ممدوح) مبهورًا :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

مطَّ (رأفت) شفتيه ، قبل أن يسأله :

ـ هل استوعبت الأمر ؟!

أطلق (ممدوح) زفرة ملتهبة ، من أعمق أعماق صدره ، قبل أن يغمغم فى عصبية بالغة :

ـ إننى أبذل قصارى جهدى .

أزاح (رأفت) ستارة نافذة تلك الحجرة ، التى يجلسان فيها ، فى مبنى الدائرة الجمركية ، وألقى نظرة طويلة على السفينة المجهولة ، التى بدت رهيبة المظهر ، مع أضواء الغروب ، التى امتزجت بمصابيح الميناء ، والأضواء التى يستخدمها رجال المعمل الجنائى ، المنتشرون على سطحها ،، والذين يقومون بفحص كل سنتيمتر منها ، فى حين ارتشف (ممدوح) رشفة من الشاى ، الذى فقد الكثير من حرارته ، قبل أن يتساءل :

(*) حقيقة .

ـ هل تعتقد أن هذه السفينة المجهولة ، هى امتداد لتلك التجربة فى (فيلادلفيا) ؟

صمت (رأفت) بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حزم :

هذا احتمال وارد .

تساءل (ممدوح) فى عصبية :

ـ ولماذا اختيار ميناء (الإسكندرية) ، لاختبار أمر كهذا ؟!

هزَّ (رأفت) رأسه ، مغمغما :

ـ من يدرى ؟!

وعاد إلى صمته بضع لحظات أخرى ، وهو يواصل مراقبة السفينة ، عبر زجاج نافذة الحجرة ، ثم لم يلبث أن استدار إلى (ممدوح) ، قائلاً :

ـ من الواضح أن هذه السفينة نتاج تجربة ما .. ليست تجربة مماثلة لما حدث فى (فيلادلفيا) الأمريكية ، عام ١٩٤٣م ، ولكنها تجربة مخيفة بالتأكيد ، فالسفن المختفية ، قد لا تبدو واضحة للأعين ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لأجهزة الرادار .. الأمر الوحيد ، الذى ربما تشترك فيه التجربتان ، هو أن هذه السفينة خالية تمامًا من البشر ، الذين مازالوا لا يحتملون التواجد داخل مجالات كهرومغنطيسية قوية .

غمغم (ممدوح) ، وهو يزيح قدح الشاى بعيدًا ، فى توتر ملحوظ :

ـ رباه ! ما الذى نواجهه بالضبط ؟!

هزّ (رأفت) رأسه ، وقال ، وهو يعود ببصره إلى السفينة :

ـ أتعشّم أن يحمل إلينا رجال المعمل الجنائى أى د ...

بتر عبارته بغتة ، واتعقد حاجباه فى شدة ، وعلى نحو جعل (ممدوح) يلتفت إليه ، متسائلاً فى توتر شديد :

ـ ماذا حدث ؟!

لم يجب (رأفت) تساؤله ، فاندفع نحو النافذة بدوره ، وموجة التوتر تنتقل عبر أطرافه فى سرعة مخيفة ، ولكنه لم يكد يلقى نظرة على السفينة السوداء المجهولة ، التى تضاعف سوادها مع مغيب الشمس ، حتى تحوّل التوتر إلى موجة ارتجافية عنيفة ، شملت كيانه كله ، من قمة رأسه ، حتى أخمص قدميه ، ومن أطراف جلده ، حتى نخاع عظامه ، وعيناه تتسعان إلى أقصاهما ، وعقله يكاد يثب خارج جمجمته ..

فأعلى سارية السفينة ، كان ذلك العلم الذهبى يتألق ، على نحو مدهش ، وفى إيقاع منتظم هادئ ، كما لو أنه يرسل رسالة ما ..

ولكن هذا وحده لم يكن السبب ..

فهناك أيضًا ، فى قلب البحر ، كان يكمن سبب آخر ..

إيقاع مماثل ، متألّق بشدة ، يجيب الإيقاع الأوّل ، فى فترات سكونه وصمته ..

وكان هذا يعنى أن اللغز لا يكمن فى السفينة وحدها ..

بل يكمن أيضًا هناك ..

فى قلب البحر ..

★ ★ ★

« لم نجد شيئًا ، فى قلب البحر .. »

تردّد النداء ، عبر جهاز الاتصال ، فى حجرة أمن الميناء المؤقّتة ، فاتعقد حاجبا (ممدوح) ، فى توتر شديد ، فى حين بدا (رأفت) هادئًا أكثر مما ينبغى ، وهو يقول :

ـ كنت أتوقّع هذا .

حدّق فيه (ممدوح) فى دهشة ، وكاد ينفجر فى وجهه مستنكرًا ، إلا أن (رأفت) مال بحركة مفاجئة ، ليضغط زر الاتصال ، قائلاً :

ـ من القيادة المؤقّتة إلى قيادة حرس السواحل .. هل فحصتم المنطقة كلها جيّدًا ؟!

مضت لحظة من الصمت ، بدت للعميد (ممدوح) أشبه بدهر كامل ،

قبل أن ينبعث صوت قائد حرس السواحل ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يقول ، فى توتر حملته كلماته فى وضوح :

ـ نعم .. فحصنا المنطقة بمنتهى الدقة ، وحددنا مثلكم موضع انبعاث ذلك البريق العجيب ، ولكننا ، عندما وصلنا إليه ، لم نجد أى شىء على الإطلاق .

سأله (رأفت) فى اهتمام :

ـ وماذا عن القوات البحرية ؟!

أجابه قائد حرس السواحل بنفس التوتر :

ـ لقد أرسلوا لنشين وغوّاصة ، ولم يعثروا على أى شىء ، لاعلى سطح البحر ، أو حتى فى أعمق أعماقه .

لم يستطع (ممدوح) الاحتمال ، عند هذه النقطة ، فهتف فى حدة :

ـ ما الذى يمكن أن يعنيه هذا بالضبط ؟!

أشار إليه (رأفت) إشارة صارمة ، قبل أن يقول لقائد حرس السواحل ، عبر جهاز الاتصال :

ـ واصلوا المحاولة ، لنصف ساعة أخرى ، ثم أبلغونى مرة ثانية بالنتائج .

أنهى الاتصال ، وهو يعقد حاجبيه ، فى تفكير عميق ، فكرَّر (ممدوح) هتافه ، فى حدة أكثر :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

هزَّ (رأفت) رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يتجه نحو النافذة ، ويتطلَّع مرة أخرى إلى تلك السفينة ، وعلمها الذى توقَّف عن التألُّق ، ثم مد بصره بعيدًا إلى البحر ، مغمغمًا :

ـ لا شك فى أننا أمام لغز ضخم .. لغز غامض رهيب .

وصمت لحظة أخرى ، تابع خلالها أضواء مصابيح رجال المعمل الجنائى ، الذين ما زالوا يواصلون عملهم على سطح السفينة ، قبل أن يشير بيده ، متابعًا :

ـ لغز يمتد من تلك السفينة ، الرابضة هنا ، إلى عمق البحر .

مطَّ (ممدوح) شفتيه ، متمتمًا :

ـ أنا أكره الألغاز ..

صمت (رأفت) ، بضع لحظات أخرى ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ عمل الشرطة لا يناسبك إذن .

ارتفع حاجبا (ممدوح) ، فى دهشة مستنكرة ، ثم عادا ينعقدان فى غضب ، وهو يقول :

ـ كونك رجل مخابرات ، لا يبيح لك إهانة الآخرين ، على هذا النحو .

عقد (رأفت) حاجبيه ، وبدا شاردًا ، وهو يواصل مراقبة السفينة السوداء الغامضة ، متمتمًا :

ـ لم تكن إهانة .

أراد (ممدوح) أن يسأله فى غضب ، عما يعنيه هذا بالضبط ، إلا أن (رأفت) اعتدل فجأة ، وقال فى اهتمام :

ـ لقد أنهوا عملهم .

كان الجواب واضحًا للغاية ، وعلى الرغم من هذا ، فقد سأله (ممدوح) فى توتر :

ـ من هم ؟!

اندفع (رأفت) نحو باب الحجرة ، وهو يقول :

ـ رجال المعمل الجنائى .

اندفع (ممدوح) خلفه ، هاتفًا :

ـ إلى أين تذهب ؟! المفترض أن ننتظر التقرير الرسمى .

هتف (رأفت) ، وهو يثب درجات السلم ، على نحو يطن لهفته ، التى أخفاها صوته وملامحه :

ـ لن نفعل .. السلطة التى منحنى إياها سيادة الرئيس ، تبيح لى معرفة النتائج فورًا .

سرت قشعريرة باردة ، فى جسد (ممدوح) ، عندما أتى (رأفت) على ذكر مؤسسة الرياسة ، ووجد نفسه يغمغم فى عصبية :

ـ الأمر إذن خطير .. خطير بحق .

لم تمض دقيقة واحدة ، على غمغمته هذه ، حتى كان يقف مع رجل المخابرات ، أمام مسئول المعمل الجنائى ، على مسافة خمسة أمتار فحسب من السفينة المجهولة ، وهذا الأخير يقول ، فى توتر بدا وكأن عدواه تنتقل بسرعة إلى الجميع .

ـ لم نعثر على أية علامات ظاهرية .

هتف (ممدوح) بالعبارة التى اعتادها لسانه ، من كثرة ما ردّدها ، فى الآونة الأخيرة :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

قلب مسئول المعمل الجنائى كفيه ، وهو يقول ، حيرة امتزجت بتوتره :

ـ يعنى أنه لا يوجد شىء واضح .. لا بصمات ، أو آثار أقدام ، أو بقايا طعام ، أو شراب ، أو حتى قطرة دم واحدة .

ثم انعقد حاجباه ، من شدة توتره ، وهو يضيف :

ـ باختصار لا يوجد دليل واحد على أن أى كائن حى ، حتى الفئران ، قد وطأ هذه السفينة بقدميه .

قال (ممدوح) فى عصبية :

ـ وماذا عنا ؟! لقد صعدنا ، رجل المخابرات وأنا إلى سطح هذه السفينة ، و ....

قاطعه مسئول المعمل الجنائى فى حدة :

ـ حتى هذا ، لم نعثر على أثر واحد يثبته .

انعقد حاجبا (رأفت) فى شدة ، عند هذه النقطة ، فى حين اتسعت عينا (ممدوح) بمنتهى الدهشة ، وهو يهتف :

ـ ماذا تعنى بهذا القول ؟! لقد صعدنا إلى سطح تلك السفينة بالفعل ، ومن المستحيل أن نفتش كل جزء منها ، دون أن نترك خلفنا أدنى أثر !

قال مسئول المعمل الجنائى ، فى حدة أكثر :

ـ ولكن هذا ما حدث !! صحيح أنه يخالف كل القواعد العلمية فى عالمنا هذا ، ولكنه حدث ، وما زال يحدث .. حتى نحن لم نترك خلفنا أدنى أثر ، خلال فحصنا لهذه السفينة المخيفة .. لم نترك خلفنا شيئًا ، وكأننا مجرَّد أشباح على سطحها .

ازداد انعقاد حاجبى (رأفت) ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين هتف (ممدوح) مستنكرًا ومتوترًا :

ـ مستحيل !

قال مسئول المعمل الجنائى فى سرعة :

ـ ولكنه حدث .. شئنا أم أبينا ..

ثم التفت إلى جسم السفينة ، الذى بدا هائلاً من موقعهم هذا ، وأشار إليها بسبَّابة مرتجفة ، مستطردًا :

ـ هذه السفينة ليست من عالمنا .. أستطيع أن أجزم بهذا ، ولكننى عاجز عن كتابته فى تقرير رسمى ، وإلا فسيتهموننى بالجنون رسميًا ، أو ....

أمسك (رأفت) بكتفه بغتة ، على نحو انتفض له جسد الرجل بمنتهى العنف ، واستدار إليه بمنتهى الحدة والتحفُّز ، فقال رجل المخابرات فى صرامة ، حطَّمت هدوءه المستفز :

ـ أريد عينات من جسم السفينة ، وطلاءها ، وقماش ذلك العلم العجيب ، الذى يرفرف أعلى الصارى الرئيسى بها ، و ....

قاطعه مسئول المعمل الجنائى ، فى عصبية بلغت أوجها :

ـ رويدك يا هذا .. ما تطلبه ربما يبدو لك أشبه بإجراء تقليدى بسيط ، ولكن الواقع أنه مستحيل !

هتف له (رأفت) فى صرامة :

ـ مستحيل .. ولماذا ؟؟!

أجابه مسئول المعمل ، وقد امتزجت عصبيته برنة يأس وإحباط عجيبة :

- لأن كل وسائلنا المعروفة ، والمتطوِّرة أيضًا ، لم تنجح فى الحصول على عينة واحدة من جسم هذه السفينة لا شىء نعرفه ، قادر على خدش أى شىء فيها ، حتى الستائر القماشية .. أو التى تبدو قماشية .. بل وحتى الخرائط الورقية فى حجرة القبطان ، وقمرة المهندسين ..

تضاعفت دهشة (ممدوح) هذه المرة ، حتى بلغت ذروة ، لم تبلغها قط فى حياته كلها ، فى حين بدا (رأفت) صارمًا متوترًا ، على نحو ربما لم يحدث أبدًا ، فى حياته بأكملها ، ومسئول المعمل يضيف ، فى لهجة رجل بلغ منه اليأس مبلغه :

- باختصار ووضوح أيها السادة .. نحن امام سفينة سوبر سفينة خارقة ، لا نعلم من أين أتت ، ولا حتى لماذا أتت إلى عالمنا هذا .

كان قوله وحده يكفى ؛ لتفجير قنبلة من الذهول والرعب ، فى قلوب سكان مدينة ضخمة بأكملها ، ولكن يبدو أن البحر ، الممتد أمامهم بلا حدود ، قد أبى أن يكتفى بهذا ، فلم يكد مسئول المعمل الجنائى يتم قوله ، حتى راحت بقعة منه تتألّق فجأة ، بضوء فسفورى أخضر ..

وفى هذه المرة أيضًا ، تجاوب العلم الغريب أعلى السفينة ، مع ذلك التألّق البحرى العجيب ..

وكان هذا كافيًا ، ليبلغ الذهول والرعب والحيرة أقصى حد يمكن بلوغه ، فى كائن حى ..

على الإطلاق .

* * *

٣ ـ كل الغمـــوض ..

هبط الظلام ، ليغمر منطقة الميناء كلها ، ويطغى على المصابيح ، التى بدا ضوؤها باهتًا واهيًا ، مع الضباب الذى راح ينتشر ، على نحو يوحى بأن الصباح سيحمل موجة حارة عنيفة ..

ولفترة لم يدر مقدارها بالضبط ، وقف العميد (ممدوح) ، على رصيف الميناء ، يتطلّع فى صمت إلى تلك السفينة السوداء الرهيبة ، التى لم تبدأ إجراءات إعادتها إلى البحر بعد ، انتظارًا لانتهاء تحقيقات الأمن ..

ثم فجأة ، قرّر أن يذهب إليها ..

أن يعتلى متنها ، ويسبر أغوارها ، ويتحدّى ذلك الغموض المستفز ، الذى يحيط بكل ما يتعلّق بها ..

جرفه الحماس للفكرة ، فلم يدر حتى كيف فعلها ، وإنما وجد نفسه فجأة على سطحها الواسع ، النظيف ، اللامع ، الذى يوحى بأن أحدًا لم يمسّه قط ..

حتى رجال المعمل الجنائى ..

ومرة أخرى ، سرى فى جسده ذلك الشعور المركّب ، الذى يجمع بين التوتر ، والرهبة ، والدهشة ، والحيرة ..

والخوف أيضًا ..

فالسفينة ، على الرغم من صمتها وسكونها ، كانت تحمل فى كل ركن منها شيئًا ما ، لا يمكن وصفه ..

شيئًا يبث فى نفسك ذلك المزيج الرهيب ، من المشاعر والانفعالات ..

أضف إلى هذا رائحة خاصة ، مخيفة للغاية ..

رائحة الموت ..

لو أن له رائحة ..

ولوهلة ما ، بدا له أنه داخل قبر هائل ..

قبر مائى متحرك ..

ومن أعمق أعماقه ، تصاعد ذلك الشعور ، وتضاعف ، وراح يرسم من حوله خيالات وظلال رهيبة ..

خُيّل إليه أن السفينة تموج بالأشباح ..

أشباح بحّارة ، وركاب ، ومهندسين ، وقبطان ..

خُيّل إليه أن نوعًا من الحياة قد دب فيها ، وسرى فى كل شبر منها ، حتى إنه كاد يسمع نبضات قلبها ..

قلب السفينة ..

وفى توتر ، ما له من مثيل ، راح العميد (ممدوح) يتجوّل فى السفينة الغامضة ..

ويتجوّل ..

ويتجوّل ..

وفى كل متر يقطعه ، كان ذلك الشعور العجيب يتعاظم فى أعماقه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

هذه السفينة حية ..

إنه يسمع أنفاسها ..

يشعر بنبضات قلبها ..

يدرك مشاعرها ..

وأحاسيسها ..

و ...

ماذا أصابه ؟!

كيف اقتنع بمثل هذه الفكرة ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

كان عقله يستنكر الفكرة ، التى أمتلأ بها كيانه ، ولكن أعمق أعماق مشاعره كانت تتجاوب معها بشدة ..

بمنتهى الشدة ..

بل باقتناع أقرب إلى اليقين ..

يقين من أنه يسمع نبضات قلب السفينة ..

يسمعها بكل وضوح ..

ومع ذلك اليقين المفاجئ ، توقّف دفعة واحدة ، وبدأ يتراجع ..

ويتراجع ..

ويتراجع ..

وبكل مشاعره ، تمنى لو أن (رأفت) يصاحبه الآن ..

يواجه معه تلك الأحاسيس العجيبة ..

الرهيبة ..

المخيفة ..

ولأنه يقف وحده تمامًا ، فقد قرّر أن يغادر سطح هذه السفينة الغامضة المجهولة ..

وبأقصى سرعة ممكنة ..

ومع قراره ، استدار العميد (ممدوح) ؛ ليغادر السفينة ، و ...

وفجأة ، تجمَّد فى مكانه ..

فأمامه مباشرة ، وعلى مائدة صغيرة تبرز من جدار القمرة المعدنى ، كانت هناك منفضة سجائر ، استقرَّت فيها سيجارة ..

سيجارة اشتعلت قمتها ، وتصاعد منها الدخان ، ليرسم منحنيات متراقصة ، فى هواء القمرة ..

وبكل ذهول ورعب الدنيا ، حدَّق العميد (ممدوح) فى تلك السيجارة ، وكاد يتجمَّد فى مكانه تمامًا ، لولا تلك الأصوات المتداخلة ، التى انبعثت من خلفه بغتة ، والتى أجبرته على أن يلتفت إليها ، و ...

ووثب قلبه من بين ضلوعه ..

لم يرتجف أو ينتفض فحسب ..

بل وثب من بين ضلوعه وثبًا ..

فهناك ، فى تلك القمرة ، كانت الحركة فى كل مكان ..

عدد من البحَّارة ، وضابط أو ضابطين ، فى ثياب ذات ألوان ذهبية عجيبة ، يمارسون حياتهم العادية ، كما يفعل أى بحارة ، فى أوقات راحتهم ..

كان بعضهم يلعب الورق ، والبعض الآخر يقرأ الصحف والمجلات ، ومجموعة تناقش أمرًا ما فى أحد الأركان ، فى حين اكتفت مجموعة أخرى بالاسترخاء ، ومشاهدة بعض الصور المتحرِّكة فى ركن آخر ..

وكانت هناك أطباق طعام ، وأكواب شراب ، وأدخنة سجائر ، وكل ما يرتبط بمثل هذه المواقف ..

ولم يكن هناك شخص واحد يوليه اهتمامًا ، أو ينظر إليه ، أو يبالى حقًّا بوجوده ..

كان وكأنه ليس هناك ..

وكأنه هو الشبح الوحيد ، وسط الأحياء ..

ثم فجأة ، وفى غمرة انفعاله ، الذى تجاوز ذروته ، شعر بيد قوية تمسك كتفه من الخلف ، مع صوت عميق ، يقول :

ـ العميد (ممدوح) ..

وانتفض جسده بمنتهى العنف ، و ....

واستيقظ ..

استيقظ ليحدِّق فى وجه رجل المخابرات ، الذى يسأله فى قلق واضح شديد :

ـ أكابوس هو ؟!

ولم يجب (ممدوح) مباشرة ..

لقد ظلّ يحدّق فى وجه (رأفت) لدقيقة كاملة ، ضاعفت من قلق هذا الأخير ، وجعلته يكرّر :

ـ هل تعانى من كابوس ثقيل ؟!

وهنا فقط ، التقط (ممدوح) أنفاسه ، واعتدل على ذلك المقعد الوثير ، الذى دفع النوم إلى جسده المرهق ، وسعل مرتين ، قبل أن يقول ، فى شىء من العصبية :

ـ نعم كابوس رهيب .

اعتدل (رأفت) ، وتطلّع إليه لحظة فى صمت ، قبل أن يشير بإبهامه إلى النافذة خلف ظهره ، مغمغمًا :

ـ أراهن أنه يتعلّق بهذه السفينة .

أومأ (ممدوح) برأسه إيجابًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم نهض من مقعده ، وجسده مازال يعانى من ارتجافة عصبية متواصلة ، واتجه نحو النافذة ، وتطلّع إلى السفينة ، التى بدت مخيفة أكثر ، مع ظلام الليل ، والمصابيح المحيطة بها ، وغمغم :

ـ هل سنبقى هنا إلى الأبد ؟!

أجابه (رأفت) فى هدوء :

ـ أنا سأبقى ، حتى يتم حل هذا اللغز ، أما أنت ، فيمكنك أن تعود إلى منزلك .. إنها الثالثة والنصف صباحًا ، ولديك زوجة وابن .. أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا (ممدوح) فى شدة ، وهو يقول فى ضيق :

ـ من الواضح أنك تعرف الكثير عنى وعن عائلتى .

قال (رأفت) ، بنفس الهدوء :

ـ لا تنس أن المعلومات مهنتى .

مطّ (ممدوح) شفتيه ، متمتمًا ، دون أن يزايله شعوره بالضيق :

ـ بالتأكيد ..

كان يشعر بسخط شديد ؛ لأن (رأفت) يعرف أسراره العائلية ، على الرغم من ثقته فى أنه سيسعى حتمًا لمعرفة المثل عن (رأفت) ، لو انعكست الأدوار ..

أو حتى دون أن تنعكس ..

بل لقد راودته الفكرة الآن بالفعل ..

فكرة أن يسعى للبحث عن أية معلومات ممكنة ، عن رجل المخابرات هذا ..

لم يكن يدرى ما إذا كان هذا متاحًا أم لا ، مع المنصب شديد الحساسية ، الذى يحتله فى مؤسسة الرياسة ، إلا أن الفكرة قد سيطرت على كيانه تمامًا ، وراحت تتعاظم ..

وتتعاظم ..

وتتعاظم ..

و ...

« أريد أن أفحص هذه السفينة مرة أخرى ، عن قرب .. »

قطع (رأفت) أفكاره بتلك العبارة ، فاستدار إليه فى حدة ، لم يكن لها أى مبرّر واضح ، وهو يقول :

ـ مرة أخرى ؟! ولماذا ؟!

تطلّع إليه (رأفت) لحظة فى صمت ، ثم أجاب :

ـ من المؤكّد أن النظرة إلى الأمور ستختلف ، على ضوء المعطيات الجديدة ..

أطلق (ممدوح) زفرة ملتهبة ، من أعمق أعماقه ، قبل أن يغمغم :

ـ ربما .

كان يحاول عبثًا ، مقاومة تلك الرغبة العارمة ، التى تغلغلت فى كيانه ، إلا أن شيئًا ما فى خلايا مخه الرمادية ، حوّل تلك الرغبة إلى لهفة شديدة ، جعلته يضيف فى حزم :

ـ أريد مراجعة بعض الأمور على كمبيوتر أمن الميناء ، ثم أعود إليك ، لمناقشة الأمر كله .

سأله (رأفت) فى اهتمام :

ـ هل ستصحبنى إلى سطح السفينة عندئذ ؟!

أجابه (ممدوح) ، وهو يندفع خارج الحجرة :

ـ ربما .

ظلّ (رأفت) صامتًا هادئًا ، بعد أن غادر (ممدوح) المكان ، ثم لم يلبث أن استدار فى بطء ، ليتطلّع إلى السفينة الغامضة ، الرابضة على رصيف الميناء ، قبل أن يغمغم :

ـ أيتها السفينة الرهيبة .. كم تثيرين فى نفوس الجميع من رهبة وخوف وقلق !! أنت بالفعل لغز غامض ، فى أذهان وعقول الكل .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى حزم خافت :

ـ فيما عدا أنا .

كانت عيناه تتألقان ، على نحو عجيب ، وهو يميل نحو زجاج النافذة أكثر وأكثر ، دون أن تترك أنفاسه على الزجاج ، ذلك الأثر الضبابى الخفيف ، الذى تتركه أنفاس كل كائن حى ، مع استطراداته الصارمة :

ـ أنا وحدى ، أعلم ما الذى تحملينه إلى هذا العالم بالضبط .. أعلمه تمام المعرفة ..

ومن حسن حظ العميد (ممدوح) أنه لم يكن داخل الحجرة ، عندما نطق (رأفت) هذا عبارته الأخيرة ، وإلا لتضاعف خوفه ودهشته وارتياعه ألف ألف مرة ..

على الأقل ..

★ ★ ★

نهض رجال النوبتجية الليلية ، فى حجرة متابعة الأمن ، فى ميناء (الإسكندرية) ، فى احترام تام ، عندما دلف العميد (ممدوح) إلى المكان ، وهو يقول فى حزم متوتر :

ـ هل جهاز الاستعلام الأمنى يعمل بكفاءة ؟!

كانت عقارب الساعة تتجاوز الثالثة والنصف صباحًا بثمانى دقائق كاملة ، ولم تكن هناك أية سفن قد وصلت إلى الميناء ، إلا أن الرجال استجابوا لقائدهم فى سرعة ، وضغط أحدهم أزرار الكمبيوتر ، متسائلاً :

ـ ما الاسم الذى ترغب فى الاستعلام عنه ، يا سيادة العميد ؟؟!

انعقد حاجبا العميد (ممدوح) بشدة ، عندما ألقى رجل الشرطة السؤال ، وانتبه لأوّل مرة ، إلى أنه لا يعرف عن (رأفت) هذا سوى اسمه الأوّل ..

لا يعرف اسمه الكامل !!

أو رتبته !!

أو حتى جهاز المخابرات ، الذى ينتمى إليه !!

أهو جهاز المخابرات العامة ، أم المخابرات الحربية !

أم هو جهاز مخابرات خاص بمؤسسة الرياسة مباشرة !!

الواقع أنه لا يعرف عنه أى شىء ..

على الإطلاق ..

وفى توتر ، تمتم :

ـ اسم رجل المخابرات الذى يتولّى التحقيق ، فى لغز تلك السفينة السوداء المجهولة .

تساءل الضابط فى حذر :

ـ ألا تعرف اسمه الكامل يا سيادة العميد ؟! لقد قدّم لك هويته السرية بالتأكيد .. أليس كذلك ؟!

وازداد انعقاد حاجبى (ممدوح) ..

وتضاعف غضبه وسخطه ..

ألف مرة ..

كيف سلمّ قياده إلى رجل ، لا يعرف عنه شيئًا ؟!

كيف لم يطلب الاطلاع على هويته ؟!

كيف ؟!

لقد وصل بعد حادث ارتطام تلك السفينة الرهيبة برصيف الميناء مباشرة ، فى سيارة رسمية ، وقدّم نفسه باعتباره أحد رجال المخابرات ..

ومع دقة الموقف وصعوبته ، كان من الطبيعى أن يصدقه ..

ثم إنه كان على اتصال متواصل ، بكل الجهات الرسمية ..

القوات البحرية ..

حرس السواحل ..

وحتى مؤسسة الرياسة نفسها ..

لايمكن أن يكون محتالاً أو زائفًا إذن ..

مستحيل تمامًا !

ولكن لماذا يشعر ، فى أعماقه ، بأن هناك أمر يحيط بذلك الرجل ، الذى يبدو له أكثر غموضًا من البحر نفسه ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

لم يقبل عقله بترديد السؤال طويلاً فى أعماقه ، لذا فقد نقله إلى مجموعة من الأوامر ، انطلقت من بين شفتيه فى حزم صارم ، وهو يقول لرجال أمن الميناء :

ـ أريد معرفة كيفية وصول خبر ارتطام السفينة برصيف الميناء ، إلى أية جهة رسمية ، بهذه السرعة التى تسمح بوصول رجل المخابرات ، بعد أقل من ثلث الساعة ، إلى رصيف الميناء .. ابحثوا عمن منح سيَّارته تصريحًا بالدخول ، دون إبلاغ مكتب الأمن .. أريد مراجعة أوراقه ، وهويته ، و .....

قاطعه أحد ضباط الشرطة فى توتر :

ـ سيادة العميد .. لا أحد منا يملك مطالبته بإبراز هويته ، وهو يتعامل معك شخصيًا .

قال (ممدوح) فى صرامة عصبية :

ـ سأتولَّى أنا هذا الجزء ، وعليكم أنتم القيام بالباقى .. هل تفهمون ؟!

أدى الجميع التحية العسكرية ، وهو يغادر المكان بنفس الحدة ، التى دلف بها إليه ، واندفع عائدًا إلى رصيف الميناء ، وهو يقول لنفسه :

ـ فليكن يا رجل المخابرات .. ما دمت تعلم عنى الكثير ، فمن حقى أيضًا أن أعلم عنك كل شىء ..

بدا صارمًا حازمًا ، وهو يصل إلى تلك الحجرة ، التى ترك فيها (رأفت) ، ولكنه لم يكد يدلف إليها ، حتى عاد حاجباه ينعقدان فى توتر ، قبل أن يهتف فى الجندى الذى يقف عند الباب :

ـ أين ذهب السيِّد (رأفت) ؟!

بدا الجندى شديد التوتر ، وهو يشير بسبَّابته المرتجفة إشارة مبهمة ، مجيبًا :

ـ إلى هناك ؟!

سأله (ممدوح) فى حدة :

ـ إلى اين ؟

أجابه الرجل ، والكلمات تنافس ارتجافة سبّابته ، وتتفوّق عليها أيضًا :

ـ إلى تلك السفينة .

استدار (ممدوح) فى حركة حادة إلى النافذة ، قبل أن يندفع مغادرًا الحجرة ، وهو يهتف فى حنق :

ـ ألم يستطع الانتظار ؟

لم تمض دقائق ثلاث ، على قوله هذا ، حتى كان يعتلى ظهر السفينة بالفعل ، وهو يقول لرجل المخابرات فى حدة :

ـ كان ينبغى أن تنتظر عودتى ؛ لنناقش الأمر كما اتفقنا قبيل انصرافى .

أجابه (رأفت) فى هدوء مستفز ، وهو يخرج مصباحه اليدوى الصغير من جيبه ، ويشعله ، قائلاً :

ـ لم أصل إلى ما وصلت إليه ، لأننى ألتزم دومًا بما ينبغى .

سأله (ممدوح) فى صرامة ، وهو يسير إلى جواره ، على سطح السفينة :

ـ وما الذى وصلت إليه بالضبط ؟!

رمقه (رأفت) بنظرة خاوية ، قبل أن يتجه إلى قلب السفينة ، قائلاً فى هدوء :

ـ أما زال اهتمام ابنك الزائد بالعلوم يزعجك ؛ لأنك ترغب بشدة فى أن يلتحق بكلية الشرطة ، ليصبح مثل أبيه وجده فى المستقبل ؟!

قال (ممدوح) فى حدة :

ـ لو أن هذه محاولة منك ، لترينى أن لديك معلومات غزيرة عنى وعن حياتى الأسرية ، فهذه سخافة كبيرة ، لا تليق بموقف كهذا ، أما لو أنها محاولة للفرار من إجابة السؤال ، فهى محاولة فاشلة ، لأننى أسألك بصفة رسمية ، وليس بصفة ودية .

استدار إليه (رأفت) فى بطء ، وسأله فى هدوء عجيب :

ـ بصفة رسمية ؟!

أجابه (ممدوح) فى حدة :

ـ نعم .. بصفة رسمية .. أريد رؤية أوراقك كلها ، وما يثبت انتمائك إلى جهاز المخابرات .. وتحديد هويتك ، وهوية جهاز المخابرات نفسه ، و ....

قاطعه (رأفت) بإشارة صارمة مباغتة من يده ، قبل أن يسأله ، فى اهتمام شديد :

ـ هل تسمع ما أسمعه ؟!

ارتبك (ممدوح) لحظة ، ثم تساءل فى توتر :

ـ وما الذى تسمعه ؟!

هزَّ (رأفت) رأسه ، قائلاً :

ـ يلوح لى أننى أسمع صوت أنفاس تتردَّد .

هتف (ممدوح) ، وعقله يستعيد ذكرى ذلك الكابوس الرهيب :

ـ صوت أنفاس تتردَّد ؟!

اندفع (رأفت) نحو قمرة قريبة من السطح ، وهو يقول :

ـ نعم .. يبدو لى أننى أسمع صوت أنفاس ، وأشعر بنبضات قلب ، كما لو أن هذه السفينة ..

قاطعه (ممدوح) ، وهو يهتف :

ـ حية .. أليس كذلك ؟

توقَّف (رأفت) لحظة أمام تلك القمرة ، مجيبًا :

ـ بالضبط .

ثم اندفع داخلها ، وكأنه يتوقَّع رؤية شىء ما ..

أما (ممدوح) ، فقد تجمَّد فى مكانه بضع لحظات ، وهو يستعيد أدق تفاصيل ذلك الكابوس الرهيب ..

صوت الأنفاس ..

نبضات القلب ..

ودخان السيجارة ..

والبحارة ..

والضباط ..

والملابس البحرية العجيبة ..

استعاد كل هذا ، قبل أن ينتفض جسده فى عنف ، وكأنما يستيقظ من ذلك الكابوس مرة أخرى ، ويهتف فى عصبية :

ـ انتظرنى .

قاوم ذلك التوتر الشديد فى أعماقه ، وهو يتجه نحو تلك القمرة بدوره ..

كان الأمر داخلها واضحًا للغاية ..

الأنفاس مسموعة فى وضوح ..

نبضات القلب تردِّدها الجدران المعدنية ..

وتلك الرائحة الرهيبة ..

رائحة الموت ..

وفى توتر ، أدار عينيه فيما حوله ، ثم قال فى عصبية :

ـ دعنا نغادر هذا المكان .

أجابه (رأفت) فى صرامة :

ـ ليس بعد .

استدار (ممدوح) فى حدة ، وهو يقول :

ـ فلتبق أنت إذن ، أما أنا ، فسأنصرف من هنا ، و ....

تجمّدت الكلمات فى حلقه ، وتجمّدت معها كل ذرة من كيانه ، وهو يحدّق فى تلك المنفضة على المائدة الصغيرة ، وفى السيجارة الموضوعة فيها ، والتى تتصاعد منها خيوط الدخان المتراقصة ..

ومن خلفه ، انبعثت فجأة تلك الأصوات المتداخلة ..

واتسعت عينا (ممدوح) إلى أقصاهما ، وتجمّدت الدماء كلها فى عروقه ..

تجمّدت تمامًا ..

★ ★ ★

٤ـ ظهور واختفاء ..

تراجع الضابط ، المسئول عن الاستعلام الأمنى ، فى توتر ملحوظ ، وهو يراجع المعلومات ، التى حصل عليها رجاله ، وراح يحك ذقنه فى عصبية واضحة ، قبل أن يغمغم :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن يكون هذا ما حدث .. إنها كارثة .. كارثة أمنية على كل المستويات .

سأله زميله ، فى قلق شديد :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابه الضابط المسئول فى عصبية :

وفقًا لبيانات البوّابات ، ولتقارير شرطة الميناء ، والجمارك ، وكل الجهات المسئولة ، لم يحصل رجل المخابرات على أية تصاريح ، للدخول بسيارته إلى رصيف الميناء !!

ثم التفت إلى زميله ، مستطردًا فى توتر بالغ :

ـ بل إنه لم يعبر حتى أيّة بوّابة ، من البوّابات المحيطة بالميناء .

انتقلت عصبيته إلى زميله ، الذى هتف :

ـ ولكن هذا مستحيل ! كيف وصل إلى رصيف الميناء إذن ؟!

هتف المسئول :

ـ هذا هو السؤال !

ثم استدار بجسده كله إلى زميله ، متابعًا فى صرامة عصبية :

ـ اسمع .. الأمر على هذا النحو ، يحتم الاتصال بكل الأجهزة الأمنية الرسمية ، لنعلم ما الذى يحدث هنا بالضبط .. اتصل بالمخابرات العامة ، والمخابرات الحربية ، والقيادة المشتركة للجيش ، وحرس السواحل .. وحتى رياسة الجمهورية ، لو اقتضى الأمر .

اتسعت عينا زميله ، وهو يهتف :

ـ هل تعرف كم الساعة الآن ؟!

صاح به المسئول ، وهو ينهض من مقعده بحركة حادة :

ما يحدث هنا يتجاوز كل المحاذير ، وسنوقظ الدنيا كلها ، لو حتمت علينا إجراءات الأمن أن نفعل ، لأنه لو تجاوزت الأمور الحد الأحمر ، فلن يرحمنا أحد ، وسنتحمّل وحدنا مسئولية أى خلل أمنى يحدث .. حتى سيادة العميد (ممدوح) سيتهمنا بـ ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يتلفّت حوله ، هاتفًا :

ـ أين سيادة العميد (ممدوح) ؟!

أجابه زميله ، وقد بلغ توتره ذروته بدوره :

ـ سيادة العميد هناك ، مع رجل المخابرات ..

صاح به المسئول فى حده :

ـ أين ؟!

أشار زميله بسبّابته إلى النافذة ، التى تطّل على رصيف الميناء مباشرة ، وهو يجيب فى توتر :

ـ على متن تلك السفينة .

استدار الضابط المسئول ، بحركة غريزية تلقائية ، نحو النافذة ، وهو يهتف ، بلهجة بدت مستنكرة للغاية :

ـ متن ماذا ؟!

ودون أن ينتظر جوابًا ، اندفع نحو النافذة ، وأزاح (ضلفتها) ، و ...

واتسعت عيناه عن آخرهما ، وقلبه يخفق بقوة ..

بمنتهى القوة ..

فما يحدث هناك ، عند رصيف الميناء ، كان أمرًا رهيبًا ..

رهيبًا بحق ..

* * *

كل شيء كان أشبه بذلك الكابوس بالضبط ..

كل شيء ..

فهناك ، فى تلك القمرة ، كانت الحركة فى كل مكان ..

عدد من البحّارة ، وضابط أو ضابطين ، فى ثياب ذات ألوان ذهبية عجيبة ، يمارسون حياتهم العادية ، كما يفعل البحّارة ، فى أوقات راحتهم ..

كان بعضهم يلعب الورق ، والبعض الآخر يقرأ الصحف والمجلات ، ومجموعة تناقش أمرًا ما ، فى أحد الأركان ، فى حين اكتفت مجموعة أخرى بالاسترخاء ، ومشاهدة بعض الصور المتحركة ، فى ركن آخر ..

وكانت هناك أطباق طعام ، وأكواب شراب ، وأدخنة سجائر ، وكل ما يتناسب مع المكان والموقف ..

وكما حدث فى الكابوس تمامًا ، لم يكن هناك شخص واحد يوليه اهتمامًا ، أو ينظر إليه ، أو حتى يبال بوجوده ..

تمامًا كما لو كان مجرّد شبح ..

« الآن .. » ..

انطلق الهاتف من خلفه ، حاملاً صوت (رأفت) ، فانتفض جسده بمنتهى العنف ، وتمنى لو يستيقظ مرة أخرى ؛ ليجد نفسه خارج كابوس جديد ..

ولكن هذا لم يحدث ..

ما حدث فى الواقع ، هو أن (رأفت) قد جذبه من معصمه فى قوة ، إلى خارج القمرة ، وهو يقول :

ـ إنها اللحظة المناسبة .

تبعه (ممدوح) عبر ممرات السفينة ، التى اكتظت بالبحارة والركاب ، وحتى عمال النظافة ، وهو يهتف :

ـ اللحظة المناسبة لماذا ؟!

أجابه (رأفت) فى حزم :

ـ لتفادى الكارثة .

صاح (ممدوح) ، وقد بلغ ذهوله واستسلامه مبلغهما :

ـ أية كارثة ؟!

لم يجب (رأفت) سؤاله هذه المرة ، ولكنه استمر يجذبه من معصمه ، ويندفع به وسط عشرات من رواد السفينة ، الذين يرتدون كلهم تلك الثياب الذهبية العجيبة ، ويتجاهلونهما تمامًا ، كما لو أنهم لا يشعرون حتى بوجودهما ..

ولفترة لم يدر زمنها قط ، أصبح (ممدوح) كالمسحور ، مسلوب الإرادة ، يتبع (رأفت) بنفس السرعة ، إلى سطح السفينة ، وعيناه الذاهلتان ترصدان ما حوله ، دون أدنى انفعال ..

لقد دبت الحياة فجأة ، فى كل مكان فى السفينة ..

البحارة يمارسون أعمالهم فى نشاط ..

الركاب يتجولون فى استمتاع وهدوء ..

الضباط يقودون العمل ..

والقبطان فى قمرة القيادة ..

تلك القمرة التى انتهى إليها اندفاع (رأفت) و(ممدوح) ، وقال الأوّل ، وهو يتجه نحو القبطان مباشرة :

ـ الآن فقط يمكننا أن نخرج هذه السفينة من هنا .

ولم يسأله (ممدوح) عما يعنيه ..

لم يحاول أن يسأله ، حتى عندما رآه يدفع القبطان جانبًا ، ثم يتولى دفة القيادة فى حزم ..

وبثقة لا مثيل لها ، وهدوء أسطورى مذهل ، بدأ (رأفت) يلقى أوامره ، من قمرة القبطان ، إلى بحارة السفينة ، فى منطقة المحركات ، بلغة عجيبة ..

لغة لم يسمعها (ممدوح) فى حياته قط ..

ولكن من الواضح أنها قد أسفرت عن أمر واضح جلى ..

لقدا رتجّت السفينة السوداء الرهيبة فى عنف ..

ثم بدأت تتراجع..

وعلى عكس كل القواعد البحرية المعروفة ، بدأت السفينة تعتدل ، ثم تنسحب من رصيف الميناء فى بطء ، وصفارة استعداد قوية تنطلق منها ، معلنة بدء رحلة جديدة ..

وعلى رصيف الميناء ، سادت حالة رهيبة من الهرج والمرج ، وانتشر الذعر والفزع ، على نحو لم يسبق له مثيل ، وهتف مسئول الاستعلام الأمنى فى حدة :

مستحيل ! أوقفوا هذه السفينة ! أوقفوا هذه السفينة .. لاتسمحوا لها بالتراجع ، على هذا النحو .

سأله زميله فى انفعال :

وكيف نفعل باللّه عليك ؟!

لم يدر مسئول الاستعلام بم يُجيبه ، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدق فى السفينة ، التى انسحبت مقدمتها بالكامل من رصيف الميناء ، وعادت إلى البحر ، وبدأت تستعد للإقلاع إلى جهة ما ..

فى قلب البحر ..

بحر الغموض ..

ثم فجأة ، امتلأت نفسه بمزيج من الغضب والثورة ، جعله يهتف فى صرامة عصبية :

ـ اتصلوا بكل أجهـزة الأمـن .. أبلغـوا القوات البحريـة ، وحرس السواحل ، برحيل تلك السفينة .. لا بد أن يمنعوا هروبها بأى ثمن ..

ثم صرخ ، بكل ما يلتهب فى أعماقه من انفعالات :

ـ هل تفهمون .. بأى ثمن !

فى نفس اللحظـة ، التى انطلقت فيهـا صرخته الأخيرة ، انتفض جسد العميد (ممدوح) فى عنف ، وكأنما يصحو من نوم مغنطيسى عميق ، وهتف فى حدة عصبية :

ـ أية لغة تلك ، التى تحدثت بها ؟!

أجابـه (رأفت) بنفس الهدوء ، وهو يواصل قيادة السـفينة الغامضة :

ـ لغتهم .

هتف (ممدوح) :

ـ وكيف لك أن تعرف لغتهم ؟!

لم يكد يلقى سؤاله ، حتى قفزت إلى ذهنـه فجـأة فكرة مخيفـة ، جعلته يتراجع بحركة عنيفة ، وكأنما أصابته صاعقة ، وهو يقول :

ـ رباه ! أأنت منهم ؟!

هزَّ (رأفت) رأسه ، قائلاً :

ـ كلاً .. لست منهم بكل تأكيد .

سحب (ممدوح) مسدسه من غمده ، وصوبه إليه فى عصبية ، وهو يهتف :

ـ بل أنت أحدهم .. هذا هو التفسير الوحيد لكل ما حدث ..

لم يبال (رأفت) كثيرًا ، بالمسدس المصوَّب إليه ، وهو يقول ، بنفس الهدوء المستفز :

ـ أنت لا تدرى شيئًا عن التفسير .

صاح (ممدوح) ، وهو يلوِّح بمسدسه فى وجهه بغضب صارم :

ـ وهل تملك أنت التفسير أيها العبقرى المتحذلق ؟!

استدار إليـه (رأفت) فـى بطء عجيب ، وهـو يواصـل قيـادة السفينة ، وأجاب بنفس الهدوء العجيب :

ـ بالطبع يا سيادة العميد .. أنا أملك التفسـير .. وكل الأجوبـة أيضًا .

اتسعت عينا (ممدوح) عن آخرهما ، وهو يحدِّق فيه ذاهلاً ، وانخفضت فوهة مسدسه ، دون أن يدرى ، وهو يغمغم :

ـ أنت ؟!

أجابه (رأفت) ، وهو يقود السفينة ، إلى قلب البحر :

ـ نعم .. أنا .

سأله العميد (ممدوح) ذاهلاً :

ـ من أنت بالضبط ؟!

أشاح (رأفت) بوجهه عنه ، وهو يقول :

ـ السؤال الأكثر أهمية ، هو ما هذه السفينة بالضبط ؟! وكيف أتت إلى هنا ، دون أن ترصدها أجهزة الرادار ، أو يراها رجال البحرية المصرية ، أو خفر السواحل ؟!

كان هناك ألف ألف سؤال ، كلها تعربد فى أعمق أعماق (ممدوح) إلا أنه ، ومع ذهوله الشديد ، لم يملك سوى أنه يتساءل فى خفوت :

ـ نعم .. هذا هو السؤال .

صمت (رأفت) بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ هل سمعت يومًا عن مثلث (برمودا) ؟!

أومأ (ممدوح) برأسه فى بطء ، قبل أن يجيب فى خفوت :

ـ بالطبع .. إنه مثلث وهمى ، يقع فى غرب المحيط الأطلنطى ، يمتد من (برمودا) شمالاً ، إلى (فلوريدا) جنوبًا ، ويتجه شرقًا ، عبر جزر (البهاما) وغربًا ، حتى خط طول ٥٤٠ ، ثم يعود إلى (برمودا) ، ولقد نسجت حوله عشرات القصص الوهمية والأسطورية ، بسبب الاختفاء الغامض لعدة سفن وطائرات فى نطاقه(*) .

(*) معلومة صحيحة وواقعية .

قال (رأفت) بهدوئه العجيب :

ـ معلومات رائعة ، بالنسبة لرجل أمن ، يعلن دومًا استياءه ، من اهتمام ابنه الزائد بالعلوم .

قال (ممدوح) فى ضيق منعه ذهوله من بلوغ حد السخط :

ـ ابنى لا شأن له بما نحن فيه .

قال (رأفت) فى بطء :

ـ أهذا ما تظنه ؟!

هزّ (ممدوح) رأسه بلا معنى ، قبل أن يقول ، وقد عاوده شىء من عصبيته :

ـ أتريد أن تقول : إن هناك صلة ما ، بين مثلث (برمودا) فى الأطلنطى ، وهذه السفينة ؟!

هزّ (رأفت) رأسه فى هدوء ، مجيبًا :

ـ ليس على نحو مباشر .

وصمت لحظة ، انحبست خلالها أنفاس (ممدوح) ، وبدت له أشبه بدهر كامل ، قبل أن يتابع بنفس الهدوء ، الذى يستفزه منذ البداية :

ـ عشرات النظريات العلمية ، حاولت شرح وتفسير تلك الاختفاءات الغامضة ، التى حدثت عبر التاريخ ، فى مثلث (برمودا) ، وفى

مناطق أخرى من العالم ، دون أى سبب علمى أو منطقى معروف(*) ، ومن بينها كانت نظرية ، بدت للكل مبالغة فى الخيال ، إلا أنها كانت تحمل التفسير الفعلى للأمر كله .

غمغم (ممدوح) ، فى حالة من الانبهار المسحور ..

ـ أية نظرية ؟!

تجاهل (رأفت) سؤاله تمامًا ، وواصل قيادة السفينة ، إلى قلب البحر ، وهو يتابع فى آلية ، وكأنما يردّد أمرًا يحفظه عن ظهر قلب :

ـ ثم ظهر عالم فذ ، عبقرى .. فلتة من فلتات العلم والتاريخ ، أمكنه أن يدرس الظاهرة ، من منظور آخر تمامًا مدفوعًا بتأثره الشديد بحادثة اختفاء غامضة ، حدثت هنا فى (مصر) ، وقلبت حياته كلها رأسًا عل عقب فى صباه .

قال (ممدوح) ، وقد أدهشه ذلك الهدوء العجيب ، الذى ملأكيانه :

ـ حادثة اختفاء غامضة ؟! لا توجد حادثة اختفاء غامضة ، فى تاريخ (مصر) كلها ، يمكن أن تتشابه مع ما حدث ويحدث ، فى مثلث (برمودا) .

(★) التاريخ يذخر بعشرات الأحداث للاختفاءات الغامضة ، لأفراد ومعدات ، فى أماكن مختلفة ، وفى أثناء بعض الحروب ، وفى أماكن من البحار والمحيطات ، ولعل مثلث (برمودا) هو الأشهر فى هذا المضمار ، لأن الاختفاءات قد تكررت فيه ، عبر حقبة طويلة من الزمان ، وارتبطت بأمور وأشياء مهمة جدًا .

مرة أخرى تجاهله (رأفت) تمامًا ، وهو يواصل بنفس الآلية :

ـ لقد انتبه ذلك العالم الفذ ، إلى أن التاريخ لا يحوى حوادث اختفاء غامضة فحسب ، وإنما يحوى أيضًا حوادث ظهور غامضة ، لم تحظ أبدًا بالقدر نفسه من الاهتمام ، الذى حظيت به حوادث الاختفاء ، فهناك مثلاً تلك الواقعة ، التى حدثت فى أكتوبر ١٥٦٣م ، أمام القصر الرئيسى ، فى مدينة (مكسيكوسيتى) فى (المكسيك) ، عندما ظهر جندى غريب فجأة ، وسط الجنود وعمال القصر .. جندى يرتدى ثيابًا تختلف عن باقى الجنود ، ويحمل أسلحة تخالف أسلحتهم .. ولقد بدا ذلك الجندى مذعورًا ومرتبكًا ، عندما أخبرهم أنه كان ضمن حراس حاكم (ماتيلا) ، فى ذلك الصباح فحسب ، وأنه وجد نفسه فجأة فى هذا المكان ، الذى يبعد آلاف الكيلومترات عن المكان ، الذى استيقظ فيه ، منذ ساعة واحدة .. ولقد أخبر ذلك الجندى المسئولين فى (مكسيكوسيتى) أيضًا ، أن حاكم (ماتيلا) قد قُتِل ، فى الليلة السابقة .. ولما كانت القصة عسيرة التصديق ، فقد تم إلقاء القبض على الجندى ، وسجنه فى قصر حاكم (مكسيكوسيتى) ، ولكن بعد شهرين من تلك الواقعة ، وصلت سفينة من (الفلبين) ، حاملة خبر مصرع حاكم (ماتيلا) ، فى نفس التوقيت ، وبنفس الوسيلة ، التى أعلنها ذلك الجندى(*) .

(★) واقعة مسجّلة .

غمغم (ممدوح) مبهورًا :

ـ مستحيل !

ولكن (رأفت) تابع ، وكأنه لم يسمع تعليقه :

كل ما فعله المسئولون ، بناء على المعلومات الواردة من (الفلبين) ، هو أن أطلقوا سراح ذلك الجندى ، إلا أن قصته ظلت دومًا غامضة عجيبة ، ولم يصدقها أحد وإن سجّلها أحد المسئولين ، فى قصر حاكم (مكسيكوسيتى) ، من حسن الحظ .

بدا (ممدوح) أكثر انبهارًا ، وهو يغمغم ، وكأنما نسى ما يحدث حوله :

ـ أحدث هذا فعلاً ؟!

لم يدر ماذا أصاب (رأفت) بالضبط ، فقد كان يواصل قيادة السفينة ، فى آلية عجيبة ، وهو يتابع حديثه ، بدا أشبه بشريط مسجّل متصل :

ـ هناك أيضًا قصة الطفلين ذوى البشرة الخضراء ، واللذين ظهرا فجأة ، فى بلدة (بانجوس) فى (اسبانيا) ، فى أحد أيام أغسطس ١٨٨٧م ، من كهف فى الجبال .. لقد ذهل الفلاحون لمرآهما ، وأمسكوا بهما ، وكان الطفلان مذعورين ، ولهما تلك البشرة الخضراء الداكنة ،

والعيون الليمونية ، ذات الطابع الأسيوى ، ولقد حاول قاضى البلدة أن يغسل جلدهما ، متصورًا أنه نتاج صبغة ما ، ثم اكتشف كالجميع أن هذا هو لون بشرتهما العادى .. ولأن لغة الطفلين كانت عجيبة مثل ملابسهما ، فلم يفهمها احد ، وظلا خمسة أيام دون طعام ، لأنهما رفضا تناول أى شىء ، حتى ضعفت صحتهما ، إلى أن انتبه البعض إلى اهتمامهما الشديد بحبوب الفاصوليا الخضراء .. ولقد لقى الطفل مصرعه بعد فترة قليلة ، فى حين بقيت الطفلة ، وعملت فى منزل القاضى ، وتعلمت بعض الإسبانية ، لتشرح أنها وشقيقها جاءا من عالم آخر ، يختلف عن عالمنا هذا تمام الاختلاف ، وأنهما لا يدريان كيف انتقلا إلى هنا .. ولقد عاشت الفتاة لخمس سنوات بعد ظهورها الغامض ، ثم ماتت بدورها ، ولم يتبق منها سوى ما سجله قاضى (بانجوس) فى مذكراته(*).

هزّ (ممدوح) رأسه ، وهو يتمتم :

ـ عقلى يعجز عن تصديق كل هذا .

وهنا فقط ، استجاب (رأفت) لعبارته ، والتفت إليه ، قائلاً :

هنا تأتى أهمية العقول العبقرية الفذّة .. العقول القادرة على تجاوز حالة الانبهار وعدم التصديق ، والتعامل مع كل الوقائع من منطلق علمى ، بناء على نظرية علمية فلسفية ، تضعها خلايا أمخاخهم

(★) واقعة مسجلة .

المتفوقة .. تمامًا مثل (ألبرت أينشتين) ، ذلك العالم المدهش ، الذى قلب قوانين الفيزياء فى زمنه رأسًا على عقب .. لقد بدأ كل ما فعله . بأفكار علمية فلسفية ، اقتنع بها عقله ، فسعى لإثباتها ، عبر مجموعة من المعادلات الرياضية ، ليخرج لنا بنظرية النسبية ، التى ظلت مبهرة علميًا ، حتى زمن قريب .

هزّ (ممدوح) رأسه ، وكأنما يعلن عجز عقله عن استيعاب كل هذا ، ثم رفع عينيه المحمرتين إلى (رأفت) متسائلاً :

ـ من أنت بالضبط ؟!

لم يكد السؤال يفارق شفتيه ، حتى انبعث صوت من خارج السفينة فجأة ، يقول صاحبه ، عبر مكبّر قوى للغاية :

ـ من القوات البحرية إلى السفينة المجهولة .. توقّفى فورًا ، وإلا فسنطلق النار .. هذا إنذارنا الأوّل وسنطلق النار عقب الإنذار الثانى مباشرة .

وانتفض جسد (ممدوح) فى عنف ..

انتفض ، عندما أعاده ذلك الصوت إلى عالم الواقع دفعة واحدة ، اعتدل فى وقفته بحركة حادة ، وهو يرفع فوهة مسدسه فى حزم نحو (رأفت) ، صائحًا :

ـ ألم تسمع النداء ؟! أوقف السفينة فورًا .

أجابه (رأفت) بمنتهى الهدوء ، وكأنه لا يبالى بفوهة المسدس ، المصوّبة إلى رأسه ، ولا حتى بالمدمرة واللنشات البحرية التى تلاحقه ، والتى لن تتردّد لحظة واحدة فى نسفه نسفًا ، لو أمرها :

ـ لو بقيت هذه السفينة هنا ، ستكون نهاية هذا العالم كله .

لم يدر (ممدوح) لماذا صدّق عبارته المخيفة هذه على الفور لم يدر لماذا خُيّل إليه أنه سمعها من قبل ..

أو أنه قد عاش اللحظة نفسها ، فى زمن ما ..

زمن آخر ..

لم يدر شيئًا عن كل هذا ، إلا أنه كان يوقن ، أعمق أعماقه ، أن بقاء هذه السفينة فى العالم ، سيكون بداية الفناء ..

الفناء التام ..

وفى حالة عجيبة ، راح يدير عينيه فيما حوله ، وعشرات المشاعر المتناقضة تعربد فى أعماقه ..

كان البحارة والركاب يتحركون ، وكأنهم لا يشعرون قط بما يدور حولهم ..

حتى قبطان السفينة ، الذى أزاحه (رأفت) عن الدفة ، بدا كأنه غير مبال بما حدث ..

والمدمرة البحرية بدت واضحة ، على مرمى البصر ، على الرغم من ظلام الليل ، وحولها لنشات الصواريخ البحرية ..

وبخبرته الأمنية ، كان يعلم أن المدمرة ستنفذ وعيدها حتمًا ، وستنسف السفينة نسفًا ، لو لم يستجب (رأفت) لأوامرها ..

لذا ، وبكل الحزم والصرامة ، عاد يلوّح بمسدسه فى وجه (رأفت) ، صائحًا فى صرامة :

ـ أوقف السفينة فورًا .

ولم يجب (رأفت) هذه المرة ..

لم يجب بحرف واحد ..

كل ما فعله هو أن تطلّع إلى الأمام ، فى اهتمام وانتباه كاملين ، نحو بقعة ما ، فى قلب البحر ..

واتسعت عينا (ممدوح) عن آخرهما ..

فهناك ، فى تلك البقعة ، كانت هناك دائرة تألّقت فجأة كما لو أنها مصباح هائل ، نبت فى قلب البحر ..

وكان هذا تطورًا مذهلاً وغير متوقع ..

على الإطلاق .

* * *

٥ ـ عالم آخر ..

بدا ضابط الشرطة ، المسئول عن الاستعلامات الأمنية ، فى ميناء (الإسكندرية) ، شديد التوتر والارتباك ، وهو يستقبل مندوب رياسة الجمهورية ، الذى بادره قائلاً ، فى غضب واضح :

ـ كيف يمكن أن يحدث هذا ، يا رجال أمن الميناء ؟! حادث بهذه الخطورة ، يتم التعامل معه بكل هذا الاستهتار ، حتى إن أحدًا لا يحاول إبلاغ المسئولين بالأمر !! هذه جريمة .

أجابه الضابط فى توتر بالغ :

ـ لقد قمنا بواجبنا ياسيدى ، والاتصالات بيننا وبين قيادة القوات البحرية ، وقيادة حرس السواحل ، لم تنقطع لحظة واحدة .

هتف مندوب الرياسة فى حنق :

ـ وهذا ما يثير جنوننا أكثر وأكثر .. كيف تتولّى القوات البحرية ، مع قوات حرس السواحل أمرًا كهذا ، دون إبلاغنا به ؟! كيف ؟! كيف ؟!

تنهّد ضابط الشرطة فى عصبية ، وهو يقول :

ـ يمكنك أن تسألهم هذا ياسيّدى .

هتف مندوب الرياسة فى حدة :

ـ ومن قال إننى لم أفعل ؟!

ثم تلاشت عصبيته دفعة واحدة ، وبدا يائسًا حائرًا ، على نحو أثار دهشة ضابط الشرطة ، خاصة عندما جذب مندوب الرياسة مقعدًا ، وأطلق من أعماق صدره زفرة ملتهبة بالمشاعر والاحباطات ، وهو يجلس عليه ، مواصلاً :

ـ ولكن الكل يؤكد أنه قد تلقّى إرشادات رسمية ، من أجهزة الأمن العليا ، ومن وزارة الدفاع مباشرة ، وأن كل الإشارات والأوامر كانت ملحقة بالشفرات السرية الخاصة ، وبأكواد الطوارئ القصوى ، التى لا يعرفها سوى القادة ، وسيادة الرئيس شخصيًا ، حتى إن أحدهم لم تراوده ذرة واحدة من الشك ، تجاه ما تلقّاه من أوامر وتعليمات .

غمغم ضابط الشرطة :

هذا مستحيل ! من الناحية الأمنية على الأقل !

أشار إليه مندوب الرياسة ، فى انفعال جارف ، وهو يهتف :

ـ بالضبط .

ثم هبَّ من المقعد ، الذى لم يكتمل حتى جلوسه عليه ، وهو يتابع فى عصبية يائسة :

ـ هذا ليس مستحيلاً من الناحية الأمنية والمنطقية فحسب ، ولكن من الناحية التكنولوجية أيضًا ، فالاتصال بجهات كهذه ، لا يمكن أن تتم من جهة بعيدة ، دون أن يتم رصد الاتصال ، على نحو أو آخر ، ولكن هذا لم يحدث أبدًا ، مما يوحى بأننا أمام جهة بالغة القوة ، تمتلك تكنولوجيا تفوق التكنولوجيا التى تستخدمها مؤسسة الرياسة نفسها ، لحماية أمنها واستقرارها ، وهى بالمناسبة ، أعلى تكنولوجيا معروفة ، فى يومنا هذا .. أو ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، قبل أن يستطرد ، فى صوت بدا مرتجفًا :

ـ أو أننا نواجه قوة هائلة ، لا قبل لنا بها .. قوة أتت من خارج حدود فهمنا وإدراكنا ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ أو خارج حدود عالمنا .

سرت قشعريرة باردة ، فى جسد الضابط ، مع سماعه العبارة الأخيرة ، وغمغم فى توتر شديد :

ـ أيعنى هذا أن السيِّد (رأفت) ليس ..

قاطعه مندوب الرياسة فى حزم :

ـ كل أجهزة المخابرات هنا ، تعمل بتكليف وأوامر مباشرة من مؤسسة الرياسة ، وما دمنا لم نعلم بما حدث ، فمن المحتم أن أى جهاز مخابرات ، لم يرسل أحدًا ، و ...

بتر عبارته مرة أخرى ، قبل أن يتساءل فى انفعال :

ـ أين تلك السيارة ، التى وصل بها رجل المخابرات الزائف هذا إلى هنا ؟!

بدا الضابط وكأنه قد انتبه إلى هذا الأمر فجأة ، وهو يهتف :

ـ فى الخارج .. ما زالت فى الخارج .

سأله مندوب الرياسة ، وهو يندفع إلى الخارج :

ـ هل تم فحصها ؟!

هتف الضابط ، وهو يتبعه إلى رصيف الميناء :

ـ لم يكن هناك داع لهذا .. أعنى من الناحية الأمنية .

اندفع الاثنان نحو السيارة ، التى وصل بها (رأفت) ، إلى رصيف الميناء ، وقال مندوب الرياسة ، وهو يلهث فى انفعال :

ـ يالها من مفارقة !! هو يقوم باستدعاء رجال المعمل الجنائى ، لفحص السفينة المجهولة ، فى حين لايفكّر شخص واحد فى فحص سيادته .

همهم ضابط الشرطة بكلمات غير مفهومة ، وكأنما يحاول الدفاع عن موقف إدارة أمن الميناء ، ثم تساءل بصوت حماسى متوتر :

ـ هل أرسل فى استدعاء رجال المعمل الجنائى ثانية ؟!

أجابه مندوب الرياسة فى حزم :

ـ بالتأكيد .. نحتاج إلى معرفة كل ما يمكن معرفته ، عن ذلك الرجل ، وأى شىء يمكن أن نعثر عليه ، فى سيارته هذه ، سيقودنا حتمًا إلى كشف جزء من الغموض المحيط به .. أى شىء .. بصمة إصبع .. شعرة رأس ، أو حتى ..

قبل أن يتم عبارته ، انطلقت شهقة قوية من حلق ضابط شرطة أمن الميناء ، فرفع مندوب الرياسة وجهه إليه بحركة حادة ، ثم لم يلبث أن أطلق بدوره شهقة قوية ، من أعمق أعماق صدره ، وكلاهما يحدّق فى تلك البقعة المتألّقة ، التى بدت أكبر حجمًا ، وأكثر تألّقًا هناك ..

فى قلب البحر ..

* * *

« اقفز .. »

نطق (رأفت) الكلمة فى هدوء صارم وعلى نحو مباغت ، اقترن بظهور تلك الدائرة المتألّقة ، فالتفت إليه (ممدوح) بحركة حادة ، مكرّرًا بلهجة مستنكرة :

ـ أقفز ؟!

كرَّر (رأفت) بنفس الهدوء العجيب ، الذى بدا مخيفًا للغاية ، فى تلك اللحظة :

ـ اقفز من السفينة ، قبل فوات الأوان .

حدَّق (ممدوح) فيه بذهول ، قبل أن يهتف فى غضب :

ـ أى أوان هذا ؟!

ما الذى يحدث بالضبط ؟!

اتجه (رأفت) بالسفينة نحو الدائرة المتألِّقة مباشرة ، وهو يقول بنفس الهدوء العجيب المستفز :

ـ النظرية الوحيدة الصحيحة ، لتفسير كل حوادث الظهور والاختفاء الغامضة ، كانت نظرية الأبعاد المتوازية ، والعوالم المتماسة .

هتف (ممدوح) فى دهشة :

ـ نظرية ماذا ؟!

ثم انتفض ، مستطردًا فى غضب :

ـ وما شأن هذا ، بما نحن فيه الآن ؟!

وكما حدث من قبل ، تجاهل (رأفت) سؤاله تمامًا ، وتابع فى آلية :

ـ ولقد توصل ذلك العالم الفذ ، الذى أخبرتك عنه ، إلى هذه الحقيقة ، بعد عشرين عامًا من البحث والدراسة وأثبت أننا لسنا وحدنا فى الكون ، بل توجد حولنا عوالم أخرى ، وأبعاد متوازية ،

وكلها تدور معنا فى فلك كونى واحد ، أو بمعنى أدق ، كلنا نحتل الفراغ الفضائى نفسه تقريبًا ، ولكن بذبذبات وأطوال موجية مختلفة ، وكل عالم وبعد منها يدور حول نفسه طوال الوقت ، كما تفعل كل الأجرام فى الكون المعروف ، ومع الدوران المستمر ، تلتقى العوالم فى نقطة تماس واحدة ، كل حين وآخر ، وعندما يحدث هذا ، تنفتح فجوة بين الأبعاد المتوازية ، عند نقطة تماس العوالم ، و ...

هتف (ممدوح) فى عصبية :

ـ رويدك يا هذا .. لست أفهم الكثير مما تقول ! لقد أرهقت عقلى بعشرات المصطلحات المعقَّدة ، حتى أننى لم أعد أستوعب شيئًا .

صمت (رأفت) بضع لحظات ، قبل أن يواصل :

ـ عندما تنفتح الفجوة ، يعتمد الأمر على كثافة المادة الكونية ، لكل من الأبعاد المتماسة ، فالعالم صاحب الكثافة الأعلى ، يمتص الأجسام ، التى تتواجد فى نقطة التماس ، فى العالم صاحب الكثافة الكونية الأقل .. وهذا يفسر حالات الظهور والاختفاء الغامضة عبر التاريخ ، فعندما يكون عالمنا هو الأقل فى الكثافة الكونية ، تختفى منه الأشياء ، التى تنتقل إلى العالم المتماس معنا ، والذى له الكثافة الأعلى ، أما لو حدث العكس ، فالأشياء تختفى من العالم الآخر ، وتظهر فى عالمنا .

اتسعت عينا (ممدوح) ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ رباه ! هل تعنى أن هذه السفينة ..

قاطعة (رأفت) فى حزم :

ـ نعم .. هذه السفينة من عالم آخر .. من أحد العوالم المتوازية ، التى التقت مع عالمنا ، فى نقطة تماس واحدة ، وكانت كثافتها أقل من كثافة عالمنا .

تمتم (ممدوح) بكل الدهشة والذهول :

ـ رباه ! رباه !

ثم تساءل فى توتر :

ـ ولماذا يمثل هذا خطرًا على عالمنا ؟!

أجابه (رأفت) فى حزم ، وهو يتجه بالسفينة ، نحو الدائرة المتألقة فى قلب البحر مباشرة :

ـ العالم الذى أتت منه ، ليس عالما مماثلاً لعالمنا ، بل يتكوّن من مادة مختلفة تمامًا ، على الرغم من أن مخلوقاته تشبه البشر .. وتلك المادة تبدو هنا منيعة ، نظيفة دائمًا ، لأنها تتنافر مع مادتنا الأساسية .. ووفقًا لأبحاث ذلك العالم الفذ ، ستتفاعل مادة ذلك العالم الآخر مع مادة عالمنا ببطء شديد ، ولهذا لم يظهر ركاب وبحارة السفينة ، إلا بعد فترة من الزمن ، فبالنسبة لهم ما زالت سفينتهم تبحر فى بحرهم ، ولا يرون ما يحيط بهم بالفعل .

قال (ممدوح) مبهورًا :

ولكن أجسادهم تتضح رويدًا رويدًا .

أجابه (رأفت) فى سرعة :

وهنا تكمن الخطورة .

وقبل أن يسأله (ممدوح) عما يعنيه ، تابع فى سرعة :

ـ ظهور أجسادهم التدريجى هذا ، يعنى أن تفاعل مادتهم مع مادة عالمنا يقترب من درجة الالتحام ، فإذا ما تم هذا ، ستتحوّل السفينة كلها إلى ما يشبه القنبلة النووية الاندماجية ، ولكن بقوة تفوق قوة قنبلة (هيروشيما) ألف ألف مرة ، مما يمكن أن يؤدى إلى فناء هذا العالم تمامًا .

امتقع وجه (ممدوح) بشدة ، وزاغت عيناه فى مقلتيهما ، وهو يقول :

ـ مستحيل ! مستحيل !

ثم خفض فوهة مسدسه ، متمتمًا فى ارتياع :

لا بد من منع حدوث هذا بأى ثمن .

أجابه (رأفت) بنفس الهدوء :

ـ بالضبط .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع نداء قوى ، من المدمرة البحرية ، يقول فى صرامة بالغة :

ـ الإنذار الثانى والأخير .. توقّف فورًا ، أو نطلق النار مباشرة ، دون إنذار آخر .

هتف (ممدوح) :

ـ رباه .. سيطلقون صواريخهم على السفينة ! هل يمكن أن يؤدى هذا إلى انفجارها .

أجابه (رأفت) ، فى هدوء عجيب :

ـ اطمئن .. كل قوة أسلحة عالمك ، لا تكفى لخدش سفينة مصنوعة من هذه المادة .

التقى حاجبا (ممدوح) ، وهو يتساءل :

ـ حقًا ؟!

أجابه (رأفت) وهو يلتفت إليه فى هدوء :

ـ امنحنى ثقتك .

تطلّع إليه (ممدوح) فى حيرة متوترة ، وهو يكرّر سؤاله السابق :

ـ من أنت بالضبط ؟!

لم يكد يلقى سؤاله حتى أطلقت المدمرة صواريخها ..

ودوى الانفجار ..

انفجرت صواريخ المدمرة بدوى هائل ، فى جسم السفينة ، و...

ولكنها حتى لم ترتج ..

لقد واصلت سيرها بنفس الحزم ، متجهة نحو تلك الدائرة ، التى ازدادت تألقًا ، فى قلب البحر ، وكأنما لم يمسّها طير صغير ..

وعلى متن المدمرة البحرية ، اتسعت عيون الكل فى ذهول ، وغمغم ربانها :

ـ مستحيل ! من أية مادة صنعت هذه السفينة .

هزّ ضابطه الأول رأسه فى توتر ، وغمغم فى عصبية :

ـ هل نطلق صواريخنا نحوها مجدّدًا ؟!

صمت الربان بضع لحظات ، وهو يدرس الموقف فى ذهنه جيّدًا ، قبل أن يقول فى حزم ، امتزج بلمحة من التوتر :

ـ كلا .. دعنا نبلغ القيادة العليا أوّلاً .

وصمت لحظة ، ثم تابع :

ـ ولننتظر ، حتى ندرك لماذا تتجه السفينة ، نحو تلك البقعة المتألّقة مباشرة ..

أو ما الذى سيحدث عندئذ .

« ما الذى سيحدث الآن ؟! »

هتف (ممدوح) بالسؤال ، وهو يتطلّع فى توتر إلى الدائرة المتألقة ، فى قلب البحر ، والتى تقترب منها السفينة أكثر وأكثر ، فأجابه (رأفت) بهدوئه العجيب ، وهو ينطلق نحوها مباشرة :

ـ سأعيد هذه السفينة إلى عالمها ، قبل أن تحدث الكارثة .

ثم التفت إليه ، مستطردًا :

ـ أما أنت ، فلتقفز فى البحر بسرعة ، قبل أن نبلغ نقطة اللاعودة .

كرّر (ممدوح) فى انزعاج :

ـ نقطة اللاعودة ؟!

أجابه (رأفت) :

ـ نعم .. فبعد دقائق قليلة ، سندخل نقطة التماس بين العالمين ، وعندئذ لن يكون هناك مجال للفرار .

سأله (ممدوح) فى توتر :

ـ ألا يمكننا أن نترك السفينة ، لتندفع وحدها ، نحو نقطة التماس هذه ؟!

هزّ (رأفت) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ مستحيل ! عالمك هنا أقل ، فى كثافة المادة الكونية ، عن ذلك العالم الآخر ، لذا فمن الضرورى أن نستخدم كل طاقة الدفع فى السفينة ، للعبور عكس اتجاه الجذب الطبيعى لفجوة التماس ، ولو تركنا المحركات وحدها ، ستنحرف السفينة عن مسارها ، وترتطم بحافة الفجوة ، وعندئذ ستكون النتيجة أكثر فداحة ، إذ يمكن أن يؤدى هذا إلى فناء العالمين معًا ، وإلى خلل تام ، فى نظام العوالم المتوازية كله .

اتجه (ممدوح) نحوه ، وهو يقول فى حزم :

ـ سنقوم بهذا معًا إذن .

أجابه (رأفت) فى قوة :

ـ مستحيل !

ثم التفت إليه ، مكملاً :

ـ مهمتى هنا هى أن أمنعك من تكرار هذا ..

تجمد (ممدوح) فى مكانه ، وانتفض جسده كله ، مع ارتجاف صوته ، وهو يقول :

ـ تكرار هذا ؟! ماذا تعنى ؟!

أشاح (رأفت) بوجهه عنه ، وهو يقول :

ـ أنت أنقذت عالمك فيما مضى ، عندما أدركت ما يواجهه من خطر ، فقدت السفينة بنفسك ، عبر فجوة التماس بين العالمين ، و ...

قاطعه (ممدوح) ، وهو يهتف فى حدة :

ـ ماذا ؟! ما الذى تقوله بالضبط يا رجل ؟!

ما الذى تعنيه بأننى قد فعلت هذا من قبل ؟! إننا لم نر هذه السفينة سوى مرة واحدة .

أجابه (رأفت) :

ـ بالضبط .. أنت رأيت هذه السفينة مرة واحدة ، وأنا كذلك رأيتها مرة واحدة .. فى هذا الزمن .

انتفض جسد (ممدوح) مرة أخرى فى عنف ، وهو يهتف :

ـ هذا الزمن ؟!

استدار إليه (رأفت) ، فى بطء إلى ، وهو يقول :

ـ نعم .. ففى الزمن الذى أتيت منه ، تعتبر واقعة إنقاذك لعالمك مجرد تاريخ .

اتسعت عينا (ممدوح) عن آخرهما ، وهو يقول ذاهلاً ، غير مصدّق :

ـ تاريخ ؟!

أجابه (رأفت) ، بهدوئه المثير :

ـ نعم يا سيادة العميد (ممدوح) .. بطولتك وتضحيتك سجلها تاريخ عالمك ، وإن ظلت ضمن الأسرار العليا للدولة ، لعقدين كاملين من الزمان .

هتف (ممدوح) وكل ذرة فى كيانه ترتجف انفعالاً :

ـ تاريخ ؟! .. لست أفهم .. لا يمكننى أن أفهم .

أجابه (رأفت) والسفينة تواصل اقترابها من فجوة التماس المتألّقة :

ـ الأمر عسير الفهم بالفعل ، بالنسبة لزمنك ، فالتكنولجيا التى أمثلها ، تفوق أعظم تكنولوجيا فى زمنك بألف مرة على الأقل .. لهذا لم يكن من العسير أن أصل إلى رصيف الميناء ، دون أن يشعر أحد ، وأن أستخدم شفرة الاتصالات ، وأكواد القيادات العليا السرية ، لتوجيه الأوامر والتعليمات للقوات البحرية ، وقوات حرس السواحل ، ورجال المعمل الجنائى ، وكل أجهزة الأمن الأخرى .

ردَّد (ممدوح) بكل الذهول :

ـ مستحيل ! مستحيل !

أجابه (رأفت) :

ـ لا يوجد مستحيل ، بالنسبة للتقدُّم العلمى يا سيادة العميد ، فما يبدو مستحيلاً فى زمن ما ، يتحوَّل إلى حقائق يومية بسيطة ، فى أزمنة تالية .. راجع أفلام الخيال العلمى منذ ربع القرن ، وستجد أنك تحيا الآن فيما كانوا يتصوّرونه خيالاً محضًا فيما مضى ..

وآلة الزمن ليست اختراعًا حديثًا ، وإنما بدأت تجاربها الأولى بالفعل ،

فى عام ١٩٩٧م ، على يد العالم الروسى (تشيرنوبروف)(*) ، ولكنها ظلت تعطى نتائج محدودة ، حتى قام عالمنا الفذ بتطويرها ، وتحسينها ، وصنع منها آلة زمن فعلية ، نجحت فى إعادتى إلى زمنك هذا ، لأمنعك من تكرار ما فعلته ، ولأتولى بدلاً منك مهمة إنقاذ عالمك ..

وصمت لحظة ثم تابع :

ـ بمعنى أدق .. مهمتى هى أن أحل محلك حتى لاتلقى مصرعك ، فى هذه العملية .

ظلّ (ممدوح) جامدًا ذاهلاً بضع لحظات ، قبل أن يتمتم :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا .

أجابه (رأفت) :

ـ إنه كذلك .. الآن أسرع بالقفز إلى البحر فلم يعد أمامنا الكثير من الوقت .

حدّق فيه (ممدوح) بضع لحظات ، فى صمت ذاهل ، وعقله يأبى تصديق ما سمعه !!

آلة زمن ..

تاريخ ..

بطولة ..

و ...

(*) حقيقة ، ويمكن مراجعة تجارب آلة الزمن ، على شبكة الإنترنت ، بالبحث عن اسم (Chernoprove) ، وهو العالم الذى وضع أول تصميمات عملية لآلة الزمن .

« ولماذا أنت ؟! »

هتف بالسؤال بغتة ، فى صرامة مستنكرة ، قبل أن يلوّح بيده ، مستطردًا فى حدة :

ـ لماذا تقوم أنت بالتضحية بنفسك ، لإنقاذ عالمى .

أجابه (رأفت) من برود :

ـ إنها مهمتى ، التى عبرت من أجلها الزمن إلى هنا .

هتف به (ممدوح) :

ـ أية مهمة تلك ؟! ومن كلّفك إياها ؟!

آدار (رأفت) عينيه إليه ، فى بطء رهيب ، قبل أن يجيب !

ـ ابنك .

وانتفض جسد (ممدوح) بمنتهى العنف والشدة هذه المرة ..

فالجواب كان صاعقًا ..

بحق ..

★ ★ ★

٦ ـ المهمة الأخيرة ..

انعقد حاجبا مندوب رياسة الجمهورية فى قوة ، وهو يدور مع ضابط الشرطة ، المسئول عن الاستعلام الأمنى ، فى ميناء (الإسكندرية) ، حول تلك السيارة ، الرابضة على رصيف الميناء ، والتى وصل بها (رأفت) إلى المكان ، ثم لم يلبث مندوب الرياسة أن توقَّف ، هاتفًا :

ـ مستحيل ! لا يوجد مدخل واحد إلى هذه السيارة العجيبة !! كيف خرج منها رجل المخابرات الزائف أمامكم إذن ؟!

قلب ضابط الشرطة كفيه ، فى حيرة ما بعدها حيرة ، وهو يقول :

ـ لست أدرى لقد رأيناه جميعًا يدخل المكان بها ، ثم يغادرها فى بساطة ، كما يغادر أى شخص عادى سيارته ، ولم أتخيل لحظة واحدة ، أن أبوابها وحقيبتها يمكن أن تكون كلها ملتحمة بجسمها ، على هذا النحو .. إنها .. إنها ..

ارتج عليه بضع لحظات ، من فرط حيرته ، قبل أن ينتفض جسده لسبب ما ، ويهتف فى عصبية :

ـ لا يوجد تفسير لكل ما يحدث هنا .

ازداد انعقاد حاجبا مندوب الرياسة ، وهو يتطلَّع إلى سيارة

(رأفت) فى غضب ، ثم تراجع بحركة حادة ، وسحب مسدسه من حزامه ، وهو يقول فى صرامة عصبية :

ـ فليكن .. لن يقف هذا الشىء عقبة ، فى سبيل معرفتنا للحقيقة .. لو أن جسم هذه السيارة الزائفة مظلقًا ، فنوافذها مازالت مصنوعة من الزجاج ، الذى لن يصمد أمام رصاصات مسدسى هذه .

وقبل حتى أن تكتمل عبارته الأخيرة ، كان يضغط زناد مسدسه ، ويطلق النار ..

ومع صمت الميناء فى تلك الساعة ، بدا دوى الرصاصات أشبه بالقنابل ، على نحو استفز أعصاب كل من بالميناء ، فسحب رجال الشرطة منهم أسلحتهم ، واندفعوا نحو مصدر الطلقات ، و ...

وتوقَّف الجميع ذاهلين ..

بل تجمَّدوا..

تجمَّدوا تمامًا ..

فما حدث أمام عيونهم جميعًا ، إثر ارتطام الرصاصات بجسم سيارة رجل المخابرات (رأفت) ، كان مذهلاً ..

وإلى أقصى حد ..

لقد ارتطمت الرصاصات بزجاج السيارة وجسمها ، ثم ارتَد فى عنف ، كما لو أنها مصنوعة من أقوى عنصر فى الكون ، ودون أن تترك بها الرصاصات خدشًا واحدًا ..

ولم يكن هذا هو سبب ذهول الجميع ..

وإنما كان البداية ..

فقط البداية ..

ففى اللحظة التالية ، التمع جسم السيارة ، كما لو أن بقعة ضوء كبيرة ، قد سقطت عليها مباشرة ..

ثم راحت تتألق ..

وتتألق ..

وتتألق ..

ومع تزايد تألقها ، راح جسدها يرتفع عن الأرض فى بطء ..

ويرتفع ..

ويرتفع ..

وفى ذعر ذاهل ، تراجع الجميع مبتعدين ، وهتف مندوب الرياسة ، فى عصبية زائدة :

ـ مستحيل ! ما الذى يحدث هنا ؟! ما الذى يحدث ؟!

مع آخر كلماته ، ازداد تألُق السيارة فى قوة مباغتة ، حتى أغشى تألُقها الأبصار ، فانطلقت شهقات ذاهلة مذعورة من الحلوق ، وانطلق الكل يعدو مبتعدًا ، فى هلع غير محدود ، وقد وقر فى أعماقهم جميعًا أن السيارة ستنفجر فجأة ، وستودى بهم ..

ومن خلفهم ، دوى صوت ما ..

صوت مكتوم عجيب ، أشبه بصوت هواء ينطلق ، بضغط مرتفع ، من وعاء ضيق ..

ثم تلاشى التألُق دفعة واحدة ..

وفى ذعر شديد ، استدار الكل يحدقون فى ذلك الموضع ، الذى كانت تحتله سيارة (رأفت) ، منذ لحظة واحدة ..

ثم قفز الذهول إلى ذروته ..

وكذلك الهلع ..

فلقد كان ذلك الموضع خاليًا ..

خاليًا تمامًا ..

وعلى نحو مذهل ..

للغاية ..

★ ★ ★

لدقيقة أو يزيد ، ظلّ (ممدوح) يحدّق فى وجه (رأفت) ذاهلاً ، حتى قال هذا الأخير ، دون أن يفارقه بروده :

ـ هيا .. لاتضع الوقت .. اقفز فى البحر ، وسيتم الأمر ، كما قمت به أنت سابقًا .. وعلى أكمل وجه ، و ...

قاطعه (ممدوح) ، بكل توتر الدنيا :

ـ تقول : إن ابنى هو من أرسلك من المستقبل !!

صمت (رأفت) لحظة ، ثم أجاب :

ـ نعم .. أرسلنى ، مجازفًا بوجوده نفسه ، فى سبيل إنقاذك ، من المصير الذى اخترته بنفسك ، لإنقاذ عالمك .

ثم التفت إليه ، متابعًا :

ـ صدقنى .. لقد افتقدك بشدة .. كان يحبك إلى حد الهوس ، على الرغم من خلافاتكما المستمرة .. وحزنه لفقدك وفراقك لم يزايله قط ، وكان الدافع الأوّل ، الذى حفّز كل عبقريته وهمته ، ليتحوّل إلى أعظم عالم فى عصره .. لقد فاق كل من سبقه من علماء ، على نحو فذ .. وضع نظريات علمية جديدة ، كسرت كل الثوابت الفيزيائية المعروفة ، وتوصّل إلى كشوف مذهلة ، لم يحلم بنصفها أعظم وأعلم العلماء ، الذين احتلوا مكانة رائعة ، فى تاريخ العلم .. وكل هذا من أجلك .. لقد ظل يؤمن لفترة طويلة أنه باستطاعته استعادتك ، وإنقاذك من الفناء ، مع هذه السفينة ، مما

جعله يبذل جهدًا مضنيًا لحل اللغز ، ولتطوير آلة الزمن .. الواقع أنه ينبغى أن تفخر به يا سيادة العميد ؛ فهو أعظم من عرفه زمنى ، وهو عميد علماء العالم كلهم .

وعلى الرغم من صعوبة الموقف ودقّته ، شعر (ممدوح) بفيض من الحنان والزهو يسرى فى عروقه ، وذهنه يستعيد صورة ابنه الوحيد ، وتمنى لو أمكنه أن يحيا بالفعل ، حتى يرى تلك اللحظة ، التى سيصبح فيها ابنه أعظم علماء عصره ، وعميدهم ، و ....

وفجأة ، انطلقت شهقات قوية من حولهما ، وانبعثت أصوات عصبية قوية ، انتزعت (ممدوح) من مشاعره ، فتلفّت حوله فى توتر ، ووقع بصره على البحارة والركاب ، وضباط السفينة ، وهم يحدقون فيه ، وفى (رأفت) ، عبر زجاج قمرة القيادة ، على نحو جعله يهتف :

ـ رباه ! إنهم يروننا الآن ، ويشعرون بوجودنا .

أجابه (رأفت) فى سرعة :

ـ إننا نثير ذهولهم وفزعهم للغاية يا سيادة العميد ؛ فبالنسبة لهم ، تغير عالمهم فجأة ، وانتبهوا إلى وجودهم فى عالمنا ، وفى نفس اللحظة ، التى أدركوا فيها هذا ، فوجئوا برجلين غريبين ، يرتديان ثيابًا عجيبة ، يحتلان قمرة القيادة ، ويقودان سفينتهم ، نحو بقعة متألّقة عجيبة ، تثير ذهولهم وذعرهم أيضًا .

حمل صوت (ممدوح) كل توتره ، وهو يواصل التلفُّت حوله ، هاتفًا :

ـ رباه .. سيقتحمون القمرة حتمًا ، إن عاجلاً أو آجلاً ..

أجابه (رأفت) فى هدوء :

ـ اطمئن .. لن يمكنهم هذا .. القمرة محكمة من اتجاههم ، وعلى الرغم من إدراكهم لوجودنا ، إلا أن اختلاف مادتينا يمنعهم من الظفر بنا ، أو حتى الإمساك بنا ..

قال (ممدوح) فى عصبية :

ـ ولكنك استطعت إزاحة قبطانهم عن دفة القيادة .

صمت (رأفت) بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ أنا أختلف .

هتف به (ممدوح) :

ـ وفيم تختلف ؟!

صمت (رأفت) لحظة أخرى ، ثم قال :

ـ اقفز يا سيادة العميد .. اقفز قبل فوات الأوان ..

اخرج من هنا ، واتجه نحو حاجز السفينة مباشرة ، واقفز فى البحر دون تردُّد .. سيتابعونك بأبصارهم فى ذعر وعدائية وتحفُّز ،

ولكن أحدهم لن يمنكه أن يمنعك مما ستفعله .. اقفز بالله عليك ، وغادر هذه السفينة ، قبل أن يضيع الوقت ، وتذهب تضحية ابنك هباءً .

خفق قلب (ممدوح) فى عنف ، وهو يردِّد :

ـ تضحية ؟! ماذا تعنى ؟!

صاح به (رأفت) :

ـ اقفز يا سيادة العميد .. غادر السفينة فورًا .

ولكن (ممدوح) لم يبال بصيحته ، وهو يسأله فى حدة :

ـ تحدَّثت من قبل عن مجازفة ابنى بوجوده المستقبلى ، فى سبيل إنقاذى ، ثم تتحدَّث الآن عن تضحيته .. ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟! أفصح .

كرَّر (رأفت) :

ـ غادر السفينة .. أمامنا ثلاث دقائق فحسب ، وبعدها ستصبح مهمتى كلها عديمة الجدوى .

هتف (ممدوح) :

ـ أغادر السفينة ، وتقودها أنت إلى عالمها .. وإلى حتفك أيضًا .. أليس كذلك ؟!

قال (رأفت) :

ـ المهم أن تنجو أنت .

صاح (ممدوح) متحديًا :

ـ كلاً .. لن تبذل حياتك فى سبيل حياتى .. لن أسمح لك بهذا قط .

أجابه (رأفت) ، وهو يتجه بالسفينة ، نحو الدائرة المتألقة تمامًا :

ـ لن أبذل شيئًا يا سيادة العميد .. المهم حياتك أنت .

صاح به (ممدوح) :

ـ وماذا عن حياتك أنت ؟!

استدار إليه (رأفت) ، فى بطء مخيف ، وهو يجيب :

ـ اطمئن .. ليست لى حياة .

انتفض جسد (ممدوح) ـ واتسعت عيناه عن آخرهما ، وشمل الذهول كل لمحة من ملامحه ، قبل أن يغمغم :

ـ ليست لك حياة !

تألّقت تلك الدائرة أكثر وأكثر ، فى تلك اللحظة ، وغمر ضوؤها العجيب وجه (رأفت) ، على نحو مخيف ، وهو يقول :

ـ نعم يا سيادة العميد .. أنا لست شخصًا حيًّا ، كما يبدو لكم جميعًا .. أنا فى الواقع أحد أعظم اختراعات ابنك فى المستقبل ، فآلة الزمن لا تزال عاجزة عن نقل البشر عبر الزمن .

غمغم (ممدوح) ، بكل ذهول الدنيا :

ـ أنت .. أنت شخص آلى !!

هزَّ (رأفت) رأسه فى بطء ، مجيبًا :

ـ ليس بالمعنى المعروف فى زمنك .. أو حتى بالمعنى الذى تحمله بعض الأفلام الخيالية ؛ فجسمى يتكوّن من مجموعة الموصلات ، ذات قدرة لا يمكن وصفها ، أو شرحها ، بالنسبة للتكنولوجيا المعروفة فى زمنك ، ولكنها تمنحنى ذلك الذكاء الصناعى ، الذى حلمتم به طويلاً ، وإن كانت قاصرة فى الجزء الخاص بالتفاعل الانفعالى مع الأحداث .

غمغم (ممدوح) ، من قلب ذهوله :

ـ لهذا .. لهذا كنت هادئًا طوال الوقت .

قال (رأفت) :

ـ لدى مجموعة محدودة من البرامج الانفعالية ، أمكننى إظهارها فى مناسبات قليلة فحسب .

هتف (ممدوح) :

ولكن لماذا كل هذا .. لماذا اتصالك بالبحرية ، وقوات حرس السواحل ، واستدعاء المعمل الجنائى .. لماذا كل هذه التمثيلية ، مادمت تعرف طبيعة مهمتك منذ البداية ؟!

أجابه (رأفت) ، بذلك الهدوء الآلى :

ـ لابد أن يسير كل شىء وفقًا لما سجّله التاريخ بالضبط ، حتى لحظة التغيير ، فأى اختلاف ، قبل اللحظة المنشودة ، يمكن أن يؤدى إلى مجموعة تداعيات زمنية ، ربما تقود الأحداث إلى اتجاه آخر تمامًا ، ولا أحد يدرى ما الذى يمكن أن يحدث عندئذ .. ربما كارثة أكثر فداحة .

اتعقد حاجبا (ممدوح) ، وهو يتمتم :

ـ نعم .. أى اختلاف فى الأحداث ، قد يقود إلى كارثة أكثر فداحة .

أجابه (رأفت) :

ـ بالضبط .

خفض (ممدوح) عينيه ، اللتين غامتا على نحو عجيب ، وبدا وكأنه غارق فى تفكير عميق ، فتابع (رأفت) :

والآن هيا .. غادر السفينة فورًا يا سيادة العميد هيا .

التقط (ممدوح) نفسًا عميقًا ، ثم أطلقه من أعمق أعماق صدره ، فى شكل زفرة ملتهبة ، وهو يغمغم :

ـ معذرة يا (رأفت) ، أو أيًا كان اسمك .

ثم رفع فوهة مسدسه فجأة ، وأطلق رصاصاته نحو ساقى (رأفت) ، مستطردًا بصيحة صارمة :

ـ ولكننى لن أغادر السفينة .

أصابت الرصاصات ساقى (رأفت) ، فاختل توازنه ، وسقط فجأة ، فاختل توازن دفة القيادة لحظة ، ولكن (ممدوح) وثب يلتقطها ، ويحافظ على مسار السفينة ، نحو الدائرة المتألقة ، فقال (رأفت) ، بنفس الهدوء المستفز :

ـ ولكن لماذا ؟!

أجابه (ممدوح) فى تأثر واضح :

ـ لأن ابنى العبقرى ، فاته أن ينتبه إلى نقطة مهمة جدًا ، ربما تحتاج إلى عقل رجل أمن ، بأكثر مما تحتاج إلى عالم فيزيائى فذ .

سأله (رأفت) :

ـ أية نقطة ؟!

أجابه (ممدوح) ، وهو يلتقط نفسًا عميقًا :

ـ لماذا فعلت أنا ما فعلت ، وقدت السفينة عبر تلك الدائرة المتألقة ، لأعيدها إلى عالمها ، على الرغم من أن عقليتى ، ومعلوماتى العلمية ، وطبيعتى الأمنية ، لا يمكن أن تقودنى إلى هذا ، دون أن أدرك بوضوح طبيعة الخطر الذى تمثله لعالمى ؟!

سأله (رأفت) فى آلية :

ـ الواقع أن هذا لم يرد ببرنامجى قط ، ولكن دعنى أسألك . لماذا فعلت ؟!

التقط (ممدوح) نفسًا عميقًا آخر ، وتأكّد من أن السفينة تتجه نحو قلب الدائرة المتألقة مباشرة ، قبل أن يجيب :

ـ لأنك أتيت إلى هنا .

قال (رأفت) فى بطء :

ـ لم أفهم .

أجابه (ممدوح) :

ـ الواقع أن ابنى ، عندما أرسلك عبر الزمن ، إلى هذه الفترة ، لم يكن فى سبيله إلى تغيير الأحداث فى الواقع ، وإنما كان يبدأها ، دون أن يدرى ، فوصولك هو الذى نبهنى إلى خطورة هذه السفينة على عالمى ، وهو الذى جعلنى أقودها نحو فجوة التماس ، لأعيدها إلى عالمها .. باختصار .. الزمن يسير فى دورته الطبيعية ، سواء استخدمت آلة زمن أم لا ..

قال (رأفت) :

ـ هل تعنى أننا ندور فى دائرة مغلقة .. أنا آتى إلى هنا ، وأرشدك إلى الخطر ، فتقود السفينة إلى العالم الآخر ، ويفتقدك ابنك ، ويجاهد ويثابر ، حتى يكشف اللغز ، ويخترع آلة الزمن ، ويصنعنى ، فأعود إلى هنا ، فى محاولة إنقاذك ، ولكن عودتى ترشدك إلى الخطر ، وهكذا ..

أجابه (ممدوح) فى حزم :

ـ بالضبط .

قال (رأفت) ، بنفس الهدوء الآلى العجيب :

ـ ولكن كانت أمامك الفرصة للتغيير .. كان ينبغى أن تقفز إلى البحر ، وتغادر السفينة ، وتتركنى أنا أقودها إلى عالمها .. كانت أمامك فرصة تغيير الزمن بالفعل .

هزّ (ممدوح) رأسه نفيًا ، وترقرقت الدموع فى عينيه ، وهو يقول :

ـ وما الذى كان يمكن أن يحدث عندئذ ؟! أنت قتلتها بنفسك .. تداعيات زمنية ، قد تؤدّى إلى كارثة فادحة .. بل وقد تهدّد وجود ابنى فى المستقبل .

قال (رأفت) :

ـ هذا صحيح .

تابع (ممدوح) ، ودموع حنان تسيل من عينيه ، دون أن ينتبه إليها :

ـ لقد صنع ابنى عظمته كلها ، مع تأثُّره بفقدى .. إننى أشعر بالحزن والأسى لما سيصيبه ، ولكن المأساة صنعت منه أعظم علماء عصره .. لا تنس هذا أبدًا .

وتدفَّقت الدموع من عينيه أكثر ، وهو يستطرد :

ـ إننى أسمع منذ طفولتى أن الشخص الوحيد ، الذى يتمنى المرء تفوقه عليه ، هو ابنه ..

فقط ابنه .. والآن تيقَّنت من أن هذا القول حقيقى تمامًا ، فما أن وضعت حياتى فى كفة ، ومستقبل ابنى فى الكفة الأخرى ، حتى رجحت كفته لدى بلا تردُّد .

استنفر (رأفت) كل قواه الآلية ، ونهض واقفًا ، على الرغم من إصابة ساقيه شبه الحيويتين ، و(ممدوح) يكمل :

ـ لو نجوت أنا من الموت الآن ، سيفقد ابنى حافزه ، الذى صنع منه أعظم علماء عصره .. ولا أحد يدرى ما الذى سيحدث عندئذ ... ربما يؤدى وجودى إلى تهديد وجوده هو ، فمن تختار ، لو كنت مكانى .

أجابه (رأفت) :

ـ برنامجى لا يتيح لى مواجهة مثل هذه الاختيارات .

ابتسم (ممدوح) ، على الرغم من الدموع ، التى غمرت وجهه ، وهو يقول :

ـ أما أنا ، فما منحنى إياه اللّه (سبحانه وتعالى) ، يمنحنى القدرة على التمييز ، وتقدير الأمور ، واتخاذ القرار ، ومهما بلغت عبقرية البشر ، لن يصنعوا ذرة مما يمنحه الخالق (عزَّ وجل) لكل مخلوقاته .. إرادة القرار .

صمت (رأفت) بضع لحظات ، قبل أن يلتقط الدفة ، قائلاً :

ـ أظننى أستطيع قيادتها على نحو أفضل .

تشبث (ممدوح) بالدفة فى قوة ، وهو يقول فى صرامة حازمة :

ـ لن تمنعنى من تنفيذ ما قرَّرته .

أجابه (رأفت) بهدوئه العجيب :

ـ اطمئن يا سيادة العميد .. لقد فات أوان التراجع .. السفينة ستعود إلى عالمها ، بعد دقيقة واحدة .

تردَّد (ممدوح) لحظة ، ثم لم يلبث أن ترك دفة القيادة ، وهو يقول :

ـ نعم .. انطلق بها إلى بر الأمان .

وتراجع بضع خطوات ، مغمغمًا :

ـ أمان عالمنا كله .

تسلَّم (رأفت) الدفة ، واتجه بالسفينة نحو الدائرة ، التى بدت هائلة الحجم ، وبدا تألُّقها رهيبًا ، إلى الحد الذى جعل ركابها وبحارتها وضباطها ، وحتى قبطانها يصرخون فى رعب ، وهم يجهلون تمامًا أن عبورها سينقذ حياتهم ، ويعيدهم إلى عالمهم ..

ومن بعيد ، هتف قبطان مدمرة القوات البحرية المصرية :

ـ رباه !! فليتوقف الكل فورًا .. هذا الشىء يبدو رهيبًا وخطيرًا للغاية ، ومن الواضح أن رجل أمن الميناء يقود السفينة نحوه لهدف ما .

وصمت لحظة ، انعقد خلالها حاجباه ، قبل أن يستطرد :

ـ شىء ما يحدثنى أنه يفعل هذا من أجلنا .. من أجلنا جميعًا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كانت السفينة تعبر الدائرة المتألِّقة بالفعل ، و (ممدوح) يلتقط نفسًا عميقًا آخر ، ثم يغلق جفنيه على دموعه ، التى أغرقت كيانه كله ، وهو يهتف :

ـ كم أقدِّر ما فعلته من أجلى يا بنى .. وكم تمنيت أن أخبرك كم أنا فخور بك ، ومزهو بما ستصل إليه ولكن يكفينى أن يدرك قلبك ، فى وقت ما ، أو زمن ما ، أننى إنما فعلت ما فعلته من أجل العالم كله .. من أجل عالم أردتك أن تنعم فيه بالحياة .. والتفوق .. لقد فعلت هذا من أجلك يا ولدى ..

ومع آخر حروف هتافه ، الذى انطلق من أعمق أعماق خبايا قلبه ، عبرت السفينة السوداء العجيبة ، تلك الدائرة المتألِّقة ، وتجاوزتها إلى بعد آخر ..

إلى عالم آخر ، ربما يكون العميد (ممدوح) هو أوّل من وقع بصره عليه ، من بنى البشر ..

عالم يختلف ..

يختلف تمام الاختلاف ..

وأمام عيون الجميع الذاهلة ، وفور اكتمال عبور السفينة ، راح تألُّق فجوة التماس يخبو ويخبو ، حتى تلاشى تمامًا ..

تلاشى ليغلق إلى الأبد ملف السفينة الغامضة ، الذى لم يعلن رسميًا أبدًا ..

وتلاشى ليضع كلمة النهاية ، على ملحمة إنسانية رائعة ، ربما لن يعلم أحد بأمرها ، حتى آخر الزمان ..

ومع التلاشى ، عاد الظلام ، والصمت ، والسكوت ، والهدوء إلى تلك البقعة ..

إلى قلب البحر ..

النابض ..

إلى الأبد ..

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

صفحة

متمرِّدة (خواطر) ٥

مذكرات طبيب فى صعيد مصر الجوّانى :

(الحلقة الحادية عشرة) الفصل الأوّل .. والأخير ٩

أسطورة اسمها (أطلانطس) (دراسة) ٣٧

فى سبيل الحرية (خواطر) ٨٠

حبيبى (دراسة) :

٢- وللحب ألوان ٩٣

قصة العدد :

(قلب البحر) ١٠٩

عزيزى القارئ (١) ٢١٤

عزيزى القارئ (٢) ٢٤٢

الثمن فى مصر ٣٠٠
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٥ - ٢٨٦١١٩٧
فاكس ٦٨٣٧٠٠٠